الباب الأول

obeikandl.com

تاريخ علم الجغرافيا (١)

ان لساني قاصرعن الاعراب عن سروري الفائق بهذه الزيارة الاولى لمهد المدنية القديمة الاولى حيث تحول الناس في فجر العالم الى تعهد العلوم والآداب والفنون

ألا يسمح لي في هذا المقام بان اشير الى نفسي انني رجل قدم من العالم الغربي البعيد الذي قد يكون الاتلنتس (٢) المذكور في خرافات الاقدمين ويقال ان كاهناً قديماً من كهنة بلادكم روى قصته رواية مشوقة فرآها افلاطون جديرة بالاعادة والتكرار. ثم هل لي ان اقول فوق ذلك اننا نميل في لغة الشعر الى وصف ذلك العالم الغربي بحديقة هسبريديس (٣) التي تغنى بها هزيود (٤) ولو ان كثيراً من الاوصاف التي ذكرها لا تنطبق عليها

انني احمل تحية ذلك العالم الغربي الى هذه الحفلة، حفلة افتتاح المؤتمر الدولي العظيم، الذي شملتموه جلالتكم بجودكم والذي قدمتم فيه جلالتكم برهاناً على اهتمامكم بارتقاء العلوم والفنون. ويلوح لي ان خير كلمة استطيع التفوه بها في حفلة الافتتاح هذه، هي كلمة تتناول تاريخ علمنا منذ بدايته الاولى الى ان بلغ المكان الرفيع الذي يشغله الآن بين سائر العلوم

اظن اني لا اخطئ اذا قلت ان الجغرافيا علم من اقدم العلوم ولا اغالي في تقدير هذا العلم اذا قلت انه شامل متصل بجميع العلوم الاخرى. ومن رأي استرابون (٥) ان الجغرافيين اوفر الناس حكمة وانهم كلهم فلاسفة. وقد نشر بياناً في مقدمة كتابه العظيم باسماء الرجال الممتازين وقال انهم كلهم فلاسفة وانهم كلهم جغرافيون

---

(١) هذا الفصل هو ترجمة الخطبة المتممة التي تلاها الاستاذ ادورد ستيفنسن الاميركي في حفلة افتتاح المؤتمر الجغرافي الدولي الذي التأم في القاهرة في ابريل ١٩٢٥

(٢) الاتلنتس جزيرة ذكرها افلاطون وقال انها الى غرب المضيق المعروف الآن ببوغاز جبل طارق (٣) هسبريديس في المثولوجية اليونانية الحدائق التي تحميها حفيدات هسبرس اخي اطلس والتي قصدها هرقل للحصول على احدى اثمارها (٤) شاعر يوناني قديم يظن انه عاش في القرن الثامن قبل المسيح وبعد هوميرس بنحو قرن (٥) مؤرخ وعالم جغرافي يوناني وولد حوالي سنة ٦٣ ق. م

ان الصعوبة التي تعترض الباحث حين يجتهد ان يراجع ارتقاء علم الجغرافيا منذ نشأته هي في محاولة جمع تاريخ يعتمد عليه من اساطير لم تثبت حقيقتها

ولما كنا على جانب كبير من التأكد ان عقل الانسان ارتقى ارتقاء بطيئاً وان الانسان ناضل نضالا شديداً طويلا ضد اعداء اقوياء ولم يتغلب على القوى التي تكتنفه الا تدريجياً ، اقول لما كنا نعلم ذلك كله فاننا لا نجد حيلة غير الاندفاع وراء التخمين والظن اذا اردنا الوقوف على آرائه في شأن البلدان الواسعة التي كانت تحيط بالبقعة الضيقة التي كان يقطنها. ثم نسأل دون ان نفوز بجواب هل كانت معرفته الجغرافية مقتصرة فقط على البقعة التي يتجول فيها وهل كان يعرف شيئاً عن وجود بقاع اوسع تمتد الى جميع الجهات ؟ ليس لدينا سوى جواب مبني على الزعم والتخمين فيما يتعلق بالآراء التي ارتآها حينما وقعت عيناه لاول مرة على البحر الواسع ورآه يمتد امامه الى مسافات شاسعة حتى خيل اليه انه يلتقي بالسماء

وانقضت قرون على ذلك العهد المظلم قبل ان نجد اول دليل على محاولة وصف الارض او وصف جزء منها . وقد وجدت في كثير من البيانات الجغرافية العتيقة التي وصلت الينا آراء وافكاراً لم تبن على مشاهدة او امتحان لاحد المعاصرين بل تضمنت معلومات استقيت من مصادر عريقة في القدم يجب ان توضع اصولها وتواريخها بين الامور التخمينية .وهذا يقودنا الى اصول الاعتقاد الهندي بان الارض قائمة على ظهر سلحفاة او فيل ضخم والى رأي البراهمة ان الارض زهرة من ازهار النيلوفر المتفتحة طافية على سطح المياه والى رأي المصريين القدماء بان السماء قبة واسعة مرتكزة على الجبال

ثم جاء اليونان فوضعوا علماً لوصف الكون مبنياً على التخيل مثل الشعوب التي سبقتهم وانتقل معظم ارائهم هذه الى الشعوب التي خلفتهم في نشر لواء الحضارة فذكروا حتى في العصور الاولى الشرق بانه بلاد الغنى والثروة الواسعة والشمال بانه مهد سكان الشمال السعداء والجنوب بانه مسكن الاحباش المسالمين والغرب بانه مهد ما يأخذ اللب من الخيال والخرافات . ففيه كانت الجزائر الطافية وجزائر السعادة وجزائر المباركين ومركز جميع مجاري الاوقيانوسات حيث قطنت في الازمنة الغابرة امة غنية منيعة

الجانب وفيه ايضاً حقول اليزيا [١] مسكن الابطال الذين ينجون من مخالب الموت حيث الحياة خالية من الهموم والمتاعب . وهكذا نرى للغرب في تصورات العصور الاولى شأناً جغرافياً خاصاً

ومع ان كثيراً من المذاهب القديمة تبدو وهمية فانها تبين بداية الاهتمام بالمظاهر الجغرافية . وقد ارتقى علم الجغرافيا من هذه الاصول الضئيلة الى ان وصل الى مقامه الحالي الرفيع . ولا بد ان تكون اكثر المذاهب الجغرافية امعاناً في الوهم كالقول بالجزائر وراء اعمدة هرقل قائماً على شيء من معرفة الاراضي غرب الاتلنتيكي وقد بقي كثير منها مشهوراً في القرون التالية فاثر في الآراء الجغرافية حتى بعد ان كشف كولمبوس اميركا

كان الافق في نظر الشعوب القديمة ضيقاً كما اشرت الى ذلك قبلا لا يتعدي المنطقة التي يعيشون فيها فكان من الجرأة العظيمة اختراق هذا الافق والدخول في المنطقة الواقعة وراءه وارتيادها وليس لدينا الآن سوى حقائق ضئيلة عن الاعمال التي قام بها الناس قديماً للوصول الى تلك الغاية ولكن نقل من ذلك العهد الى العصور التالية اقاصيص عن رحلات واسفار وسعت معارف الشعوب عن وجود بلدان اخرى في انحاء الارض البعيدة . وقد تكون حكاية الارغونتيين [٢] حكاية بعثة بحرية حقيقية على جانب كبير من الاهمية بحيث جعلت لها علاقة بحياة الابطال وانصاف الآلهة . اما قصة عولس [٣] ورحلاته فانها تذهب بنا الى جزيرة فاروس عند مدخل مرفأ الاسكندرية وتشير الى مصر والنيل وشعوب الجنوب وآكلي اللوتس . على ان هذه القصة ليست قصة رحالة فقط بل هي بيان المعارف الجغرافية في ذلك العصر بعد ان جمعت بالسفر والارتحال

وللفينيقيين مقام كبير في توسيع المعارف الجغرافية . فقد استولوا في القدم على

---

(١) حقول اليزيا في المثولوجية اليونانية مقام الابطال المباركين بعد الموت وصفها هوميرس بانها عند طرف الارض الغربي قرب الاوقيانوس وقال هزيود وبندار الشاعران انها في جزائر السعادة . ومن هذه الخرافات نشأت خرافة الاتلنتس التي ذكرت آنفاً

(٢) الارغونتيون هم الابطال الذين سافروا مع ياسون في السفينة ارغو حينما ذهب يبحث عن السلخ الذهبي (٣) عولس احد ابطال اليونان الذي حارب في حروب طروادة وبعد هذه الحروب حاول الرجوع الى بلاده فحملته الرياح الى شواطىء افريقية

التجارة التي كانت بين المصريين في وادي النيل والبابليين فيما بين النهرين . وهم الذين ضربوا في البحر غرباً في اواخر أيام قرطاجنة فاجتازوا بوغاز جبل طارق ووصلوا الى جزائر القنار ثم خاضوا عباب الاوقيانوس الاتلنتيكي الى الشمال فخطوا رحالهم في جزائر سكلي [١] ومقاطعة كورنول في بريطانيا . وقد يكونون طافوا بحراً حول افريقية قبل ان فعل ذلك فاسكو دي غاما بالفي سنة . وانشأوا مستعمرات تجارية بعيدة عن وطنهم الاصلي فنشأ فيها اهم المراكز التجارية التي ترصع شواطىء بحر الروم كما تشهد بذلك اسماء هذه المستعمرات . ثم تقدمت المعارف الجغرافية حينما شرع اليونان ينشئون مستعمراتهم على شواطىء البحر الاسود (اليوكسن) وبحر الروم . فانشاء هذه المستعمرات وسع المعارف الجغرافية توسيعاً سريعاً مطرداً فبعث على البحث عن احوال تلك البلدان ووصف طبيعتها فنجم عن ذلك ما حمل العلماء على التكهن في الاجابة عن المسائل الجغرافية الكبرى كالتي تتعلق بتكون الارض وتركيبها وما من احد كان اقوى اثراً في الحث على هذه الابحاث من بيثياس المسالي او المرسيلي [٢]

ان البيان الذي يشمل اسماء الذين قاموا بخدمات جليلة للجغرافيا بيان طويل حتى ولو أقتصرنا على ذكر علماء العصور القديمة . فيه نجد امثال هكاتوس وهبرخوس وفيثاغوروس واراتوسثينيس الاسكندري العظيم . كل هؤلاء افادوا هذا العلم فائدة خالدة

ثم كيف انسى في هذا المقام اسم هيرودوتوس العظيم الذي يعد تاريخه خزانة غرائب في التاريخ والجغرافيا . ومما يجب ان يذكر هنا اننا نرجع في هذه الايام الى مؤلفات هيرودوتوس للوقوف على معلومات قديمة تتعلق بقلب القارة التي تعيشون عليها . ولعمري لم يبق لدينا شك في روايات فرعون نخو وستاسبس وهانو وكيف ان الأول سير سفينته في القنال الذي كان يمتد من النيل الى الخليج العربي ومن ثم الى الجنوب وكيف أمر بحارتها بمواصلة السير الى الجنوب والعودة من خلال أعمدة هرقل الى مصر . والسبب الذي ذكره هيرودوتوس للارتياب في صحة أخبارهذه

---

(١) جزائر سكلي ارخبيل انكليزي صغير على ٢٥ ميلا الى الغرب الجنوبي من طرف كورنول بانكلترا (٢) ملاح وجغرافي يوناني منه عرف اليونان وصف غرب اوربا والجزائر البريطانية . والراجح انه كان معاصراً للاسكندر ذي القرنين

الرحلة أقوى الأدلة التي تؤيدها — وهو ان الشمس صارت على يمين البعثة حينما كانت تدور حول ليبيا في الجنوب . ومن الغريب ان ما ذكره عن افريقية وجد بعد الابحاث الحديثة غاية في الدقة

وليس من رأي جغرافي بين آراء اليونان القديمة الناضجة أبعد اثراً في نشر المعلومات الجغرافية وتوسيعها في القرون التالية مثل الرأي الخاص بشكل الأرض القائل انها قرص مستدير يجري حولها محيط هو منبع جميع المياه والانهار والعيون والبحار وانه يوجد بلا ريب شعوب تقطن وراء هذا المحيط. ثم تعددت الآراء خلال القرون التالية عن هؤلاء الشعوب وهل يمكن زيارتهم وهل هم مثل الشعوب التي تسكن البلدان المعروفة

والقول بكروية الأرض اولا كان يستلزم القول بوجود اناس في الجهة المقابلة من الكرة . فاتباع فيثاغورس قالوا ان الأرض يجب ان تكون كرة لان الكرة اتم الأشكال الهندسية وانها يجب ان تكون ساكنة لان السكون اكبر مهابة من الحركة وانها يجب ان تكون في مركز الكون لان ذلك هو مركز الشرف الممتاز . وبعد ان أعلن هذا الرأي القائل بكروية الأرض لم يهمل مع انه انقضت قرون كثيرة قبل ان تثبت صحته برحلة القبطان بجلان المشهورة

ولم يكتف الرومان بنقل المعارف الجغرافية التي اتصلت بهم من اسلافهم بل وسعوها كثيراً بما كشفوه من الحقائق الجديدة حين انهماكهم بالحروب والفتوحات وانشاء المستعمرات وتوسيع نطاق التجارة . فكتاب الرومان كانوا بارعين في رواية اخبار الاسفار والرحلات ووصف البلدان النائية عن ايطاليا وتلخيص ما كان معروفاً عن سطح الأرض في الأيام السابقة لايامهم

وأين نجد في تاريخ علم الجغرافيا كله من افاد هذا العلم أكثر من كلوديوس بطلميوس الأسكندري؟ لقد مررت في طريقي الى القاهرة بالمدينة التي شاهدت أعماله في تلك الأيام السالفة ولا أريد ان اغادر هذه البلاد قبل ان ابذل شيئاً من الجهد لأعرف هل كان بطلميوس يقرن ابحاثه في العلوم الجغرافية بخرائط كالتي أعتدنا ان ننسبها اليه ؟ على اننا ندخل هنا مجالا فيه كثير من الجدال ولذا لا أريد متابعة هذا البحث الآن

وصل التجار في أيام الامبراطورية الرومانية الى اقصى انحاء العالم المعروف في الشرق والغرب فقد كانت جزائر كناريا معروفة لديهم يكثرون التردد عليها ولكن هذه الجزائر جهل موقعها بعد سقوط الامبراطورية ثم كشفت ثانية في القرون الوسطى . وعرفوا أيضاً بلاد الهند والشرق الأقصى وجمعوا حقائق كثيرة عن ثروة تلك البلدان الطائلة . وكان اهتمام رومية بالجغرافيا عملياً تؤيد هذه الحقيقة خرائطهم ولا سيما الخاص منها بالطرق . واذا تركنا النظر في الجغرافيا القديمة فاننا نترك عهداً كان هذا الموضوع يلاقي فيه اهتماماً علمياً حقيقياً وندخل في عهد مدهش باساليبه البعيدة عن العلم وفروضه السقيمة وما يترتب عليها من النتائج المغلوطة ، ففي العهد الأول من القرون الوسطى المسيحية كان الاهتمام بالجغرافيا من اجل الجغرافيا نفسها قليلا لان الروح الديني كان مسيطراً على الغرب فلم يبد من الغربيين اهتمام بالجغرافيا الا اذا رأوا فيها وسيلة الى غاية دينية . ولكن كتابات الكتاب الذين جعلوا همهم تنوير معاصريهم في ذلك الزمن تحوي بعض الآراء القديمة في الارض وما عليها كما يظهر من الخرائط التي وصلت الينا من ذلك العهد . فانك تجد بليني وس واسترابون يذكران في روايات سولينوس او ان مقامهما الرفيع يعود الى ما ذكره عنهم في قصصه .

اما فزما انديكوبلنتس فوجد كتب العبرانيين الدينية مصدراً كافياً لكل المعارف الجغرافية التي يحتاج الناس اليها وحين مطالعة كتابه « التبوغرافيا المسيحية » تجده يذكر المذاهب الجغرافية التي سبقت مذاهب العبرانيين ثم يبين ما فيها من الخطإ

ومعظم الكتاب في هذا العهد الذين يعرفون بآباء الكنيسة لم يكونوا يهتمون كثيراً بجمع معارف دقيقة عن سطح الارض . وسلطتهم في الامور الدينية التي لم يجرؤ احد على مقاومتها جعلت لآرائهم الجغرافية مقاماً خاصاً فسار علم الجغرافيا في مجار ضيقة وثبطت عزيمة كل باحث كانت غايته جمع الحقائق العملية عن البلدان القريبة والبعيدة

كذلك نحن مدينون بكثير من معارفنا الجغرافية للحجاج والمرسلين والتجار مع ان معظم الحقائق التي جمعوها كانت ثانوية في اعتبارهم

وبينا كانت المسيحية قانعة باستقاء معلوماتها الجغرافية من موارد منحطة ، كانت

الشعوب العربية تنمي معارفها وتنشر معلوماتها الجغرافية والفلكية وكان العرب يعملون الى درجة ما طبقاً للقواعد اليونانية ولكنهم شيدوا على هذه القواعد صرح ابحاثهم المستقل الخاص بهم

وقد وضع ابو الحسن علي المعروف بالمسعودي الذي سافر اسفاراً كثيرة في اواسط القرن العاشر ، مؤلفاً سماه : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » روى فيه كثيراً مما يدل على ان شعبه كان شديد الاهتمام بالتجارة والاسفار البعيدة والارتياد واستقاء المعلومات التي اخذها الخلف عن السلف. ويمسك الادريسي، احد مواطنيه، باراء اليونان الصحيحة ، ومنها الاعتقاد بكروية الارض ولو انه ارتاب في وجود منطقة آهلة بالسكان في الجنوب لانه كان يعتقد بوجود بحر الظلمات ، وان كل سعي للوقوف على اسراره مقضي عليه بالفشل

وكان العرب يعرفون البحار الهندية ويسافرون فيها لانها كانت طريقهم التجاري المطروق ، كما كانوا يعرفون شواطىء افريقية الشرقية والغربية جنوبي خط الاستواء . وقد دون المستر ده لارنسيبه هذه الحقيقة في مؤلفاته الحديثة ولكن ما نعرفه عن ثقة يستدل منه ان العرب لم يتوغلوا في الاتلانتيكي للبحث عن ارض وراءه فلم يظهروا في ذلك شجاعة رجال الشمال ولا جسارة الطليان الاول

وجني العالم الاوربي فوائد كبيرة في علم الجغرافيا من هجرة الشعوب السكندناوية في القرن الحادي عشر . على ان هذه الفوائد الكبيرة الدائمة لم تجن لان الشعوب السكندناوية كانوا رواداً من الطبقة الاولى اجتازوا البحر الى جزيرة جرينلندا وما وراءها ولا لانهم داروا حول الرأس الشمالي وارتادوا ثنايا البحر الابيض وفتحوا كثيراً من البلدان في الشمال الشرقي من اوربا بل لانهم هاجروا الى بلدان مختلفة وانشأوا فيها مستعمرات كثيرة فاليهم يعود الفخر في تجديد الدم الاوربي وأحياء النشاط الاوربي من جديد فبعثوا في الشعوب المسيحية شيئاً من العزم الذي يحركهم فبدأت ثانية في توسيع المعارف الجغرافية التي كانت قد أهملت بعد انحطاط الامبراطورية الرومانية

هذه كانت مهمة اهل الشمال المعروفين « بالنورس » او « الفيكنغ » اما الادوار

الشمالية من النهضة الاوربية فقد واصل رجالها العمل الذي بدأه سكان الشمال وتعهدوه بالعناية الى التمام

وحين انتهى عهد الحروب الصليبية التي ساعدت على توسيع المعارف الجغرافية، ورحل فيه الاوربيون لاسباب دينية فقطنوا في بلاد مخالفيهم في الدين لاسباب تجارية — اقول في السنوات الختامية لهذا العصر نقرأ عن الاعمال المهمة التي قام بها بعض الايطاليين مثل كاربيني وروبره كي ومارينيولو الذين عرفوا كيف يدونون في اخبار اسفارهم اموراً ذات شأن جغرافي كما دونوا اموراً ذات شأن ديني. ومع علو كعبهم في تاريخ الجغرافيا ليست لهم المكانة الرفيعة التي لاسرة بولو البندقية. فللكتاب الذي وضعه ماركو بولو مقام رفيع بين الاسفار الجغرافية في القرون الوسطى، فهو قصة جديدة لرحلة من الغرب اجتاز فيها الممالك القديمة ووصف بدقة نادرة ما يشاهده المسافر من ايطاليا الى ما بين النهرين وبلاد فارس ومرتفعات اسيا الوسطى وصحراء غوبي ومروج منغوليا الى الصين والبحر الاصفر. انها قصة شائقة نادرة ومن الصعب ان يقاس ماكان لها من الاثر في الغرب. انها تمثل أعلى مستوى بلغه كتاب العصور الوسطى في رواية اخبار الرحلات. وما تم بعد ذلك من توسع اوربا تم معظمه عن طريق البحر

لم تجن اوربا فائدة من البعثات التي ارسلها سكان الشمال الى مياه الاتلنتيكي لان وجهة اوربا كانت الى الشرق فلم تتم الخطوة الكبرى التالية في سبيل التوسع الجغرافي العلمي الا عند ما تحول تجارة البلاد الواقعة في شمال البحر المتوسط الى التجارة والنقل البحري بهمة ونشاط، فلم يلبث تجارة المدن الايطالية ان استولوا على زمام الملاحة في البحر المتوسط ورسموا طرق البحار بمهارة غريبة، وانسلوا من بوغاز جبل طارق، وجابوا شاطىء الاتلانتيكي شمالا وجنوباً بجرأة عظيمة، وصاروا يزدادون اقداماً ومخاطرة عاماً بعد عام، ويبثون روح العمل والارتياد في نفوس الامة التي تقطن الطرف الاقصى من اوربا الغربية واعني بها امة البرتغال التي شاءت الاقدار ان تصير بفضل ملكها العظيم هنري الملاح في مقدمة الرواد الذين مهدوا لغيرهم الطريق. وليس هذا مجال الافاضة في ذكر الخدمات التي قام بها هذا الملك الجليل، والتي كانت بمثابة وحي لاعمال الارتياد ولكن اقول باختصار ان فضله يلخص في تمسكه بفكرة عظيمة

باصراره على تنفيذها وفيما جاء بعد ذلك من الحوادث السريعة كارتياد شواطىء افريقية وسير السفن حول رأس الرجاء الصالح واكتشاف العالم الجديد وفتح الطريق البحري الى الهند وملقا والصين ، ثم اكتشفت استراليا قبل مضي قرن على اعمال الاكتشاف المتواصلة

واذا كانت هناك بعثات ارسلت الى شاطىء افريقية في القرن الخامس عشر فقد كانت هناك بعثات اخرى الى الاتلانتيكي ، لم يدون كثير من اخبارها ، تحدو اصحابها فكرة احتمال العثور على اراض وجزائر جديدة . وخير ما لدينا من تاريخ هذه الرحلات ، الخرائط التي رسمت في ذلك العهد . نعم ليس من السهل فهم كل ما فيها ولكن يجد الناظر اليها لذة ومغزى عظيمين

ولم يكن بين جميع الذين سلكوا البحار وقاسوا اهوالها اعظم من خريستوفورس كولمبوس وقد كان عمله جرأة عظمى لا لانه وضع خطة للبحث عن الهند الشرقية بالسير الى الغرب فانا اعتقد كل الاعتقاد ان ذلك لم يكن جزءاً من خطته الاصلية بل لانه كان ينوي العثور على جزائر وبلدان اخرى. على ان الاعمال التي انجزتها رحلاته تجعل الفضل يعود اليه في ايجاد الطريق غرباً . ومن الآن نجتاز الحدود وندخل في اعجب عهد من توسع المعارف الجغرافية . ولا استطيع ان اسير الى ابعد من ذلك في هذا المقام متتبعاً هذا المسلك فالموضوع لا يستنفده البحث

واذا كان لا بد لي من ان اشير بكلمة الى توسع العلم بعد ذلك وأتتبعه حتى هذا الوقت فانني اشير الى سرعة تناقص الاقطار التي لم تكشف بعد والى الحماسة التي يندفع بها المكتشف في هذا الزمن الى مغامراته . ولا بد لي من التنويه بالدروس الكثيرة في فروع عديدة من هذا العلم وهي الفروع التي اصبحت تعد ذات شأن كبير وفائدة عظمى كالجغرافيا الطبيعية والجغرافيا الانثولوجية والجغرافيا الرياضية والجغرافيا التصويرية والجغرافيا الاجتماعية والاقتصادية والجغرافيا التاريخية والجغرافيا الحيوية . وفروع اخرى تدعو الى دروس عميقة

مقتطف مايو ١٩٢٥

—٥:٥—

تقدم علم الجغرافيا

في القرن التاسع عشر [١]

كان القسم المعروف من اليابسة سنة ١٨٠٠ يبلغ نحو خمس اليابسة كلها وكانت الخرائط ترسم ويترك القسم المجهول بلا كتابة فما جاءت سنة ١٩٠٠ حتى بلغ ما اكتشف من اليابسة عشرة اجزاء من احد عشر جزءاً تقريباً فبقي جزء من احد عشر مجهولا (انظر الرسم الذي في صدر هذه المقالة. والجزء المجهول متفرق على سطح الأرض بقعاً صغيرة وليس هناك مساحات واسعة لم تكشف الا في جهة قطبي الأرض الشمالي والجنوبي

والفرق بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر من هذا القبيل ان الأول اشتهر باكتشافاته البحرية والثاني اشتهر باكتشافاته البرية كما يتبين مما يأتي : —

أفريقية

كانت قارة افريقية على الخارطة منذ مئة سنة بقعة سوداء تحفها حاشية بيضاء قليلة العرض مع قربها من أوربا ووقوع ساحلها الشمالي موازياً لساحل اوربا الجنوبي على مسافة الف ميل وما ذلك الا لان رداءة اقليمها جعلت اسبانيا وفرنسا وانكلترا والبرتوغال يشحن باوجههن عنها ويتزاحمن على الاستعمار في أطراف اميركا والهند الشحيقة وانما قصدن افريقية للاتجار بالرقيق فيها . اما الآن فقد اصبح معظم القارة معروفاً بفضل لفنستون وستنلي وباكروسبيك ومنجو وغيرهم من اهل السياحة الذين جابوها طولا وعرضاً فأناروا ظلماتها ولم يبق مظلماً سوى بقع صغيرة متفرقة لابد ان تكشف قريباً . وقد ضمت دول اوربا كل ميل منها الى املاكهن بالطرق السلمية ماعدا المغرب الأقصى والحبشة على حين ان استعمار اميركا والهند كلفهن الوف الرجال وبدرات الأموال

واهم ما في تاريخ اكتشاف افريقية اكتشاف منابع انهرها الأربعة العظيمة وهي النيجر والزمبيسي والنيل والكنجو فان الرحالة بروس اخترق القارة في اواخر القرن الثامن عشر من البحر الأحمر حتى بلغ اعالي النيل الازرق في الحبشة (الاتبرة) ثم

(١) من قلم العلامة جابرت جروفنر

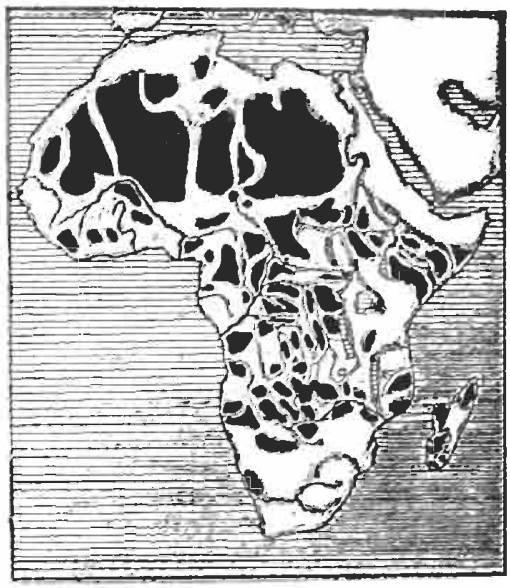

افريقيا سنة ١٩٠٤

افريقيا سنة ١٨٠٠

اميركا الشمالية سنة ١٩٠٤

اميركا الشمالية سنة ١٨٠٠

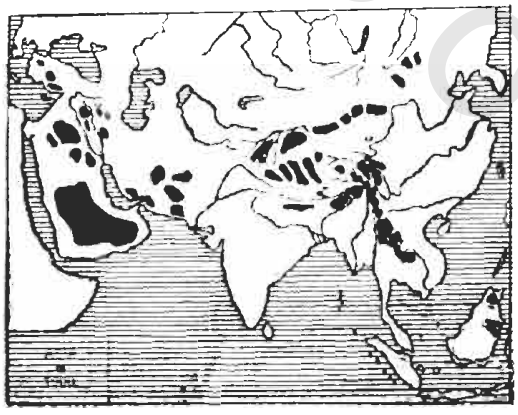

اسيا سنة ١٩٠٤

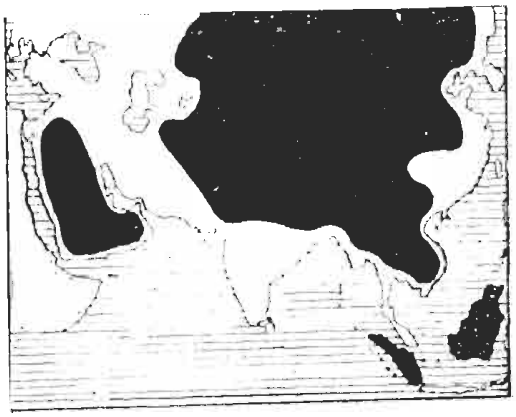

اسيا سنة ١٨٠٠

جماعة من قدماء الرواد

١ — كولمبوس (انظر صفحة ٥٩) ٢ — اميركوس فسپوشيوس انظر صفحة ٦٦) ٣ — جاك كارتييه مكتشف نهر سنت لورنس في اميركا الشمالية ٤ — فرديننڈ كورتز رائد برتوغالي ٥ — فاسكو دي غاما (انظر صفحة ٧٧) ٦ — فرنسسكو بيزارو الاسباني مكتشف بلاد بيرو في اميركا الجنوبية وفاتحها ٧ — فرديننڈ مجلان اول من دار حول الارض (انظر صفحة ٧٣)

الروّاد الصفحة ٥٩

سار حذاء النهر حتي ملتقاه بالنيل قبلى بربر واستأنف السير من هناك الى القاهرة . اما الآن فقد اكتشف مجرى النيل على مدى طوله مسافة ٣٤٠٠ ميل واكتشف ما طوله ٢٦٠٠ ميل من النيجر وبقي قسم صغير في اواسطه لم يكتشف بعد وما طوله ١٥٠٠ ميل من الزمبيسي نحو ٣٠٠٠ ميل من الكنجو وهو نهر لا يفوقه حجماً الانهر الامازون في اميركا الجنوبية

اما مكتشف مجرى النيجر فجراح انكليزي اسمه منجو بارك انتدبته الجمعية الأفريقية الأنكليزية لذلك فسافر من غمبيا في غربي القارة سنة ١٧٦٩ الى مسافة مئات من الأميال وعاد الى انكلترا ثم استأنف السير سنة ١٨٠٥ فقطع نحو الفي ميل من النهر بقاربه ومعه اربعة من الرفاق حتى اذا كاد يبلغ منابعه هاجم الأهالي قاربه فانقلب به وغرق قبل ان يدرك غايته ويبلغ امنيته

وبعد موت بارك قام دنهام وكلابرتون فسافرا من فزان جنوباً الى الصحراء الكبيرة واكتشفا بحيرة تشاد ثم سارا الى سكوتو على النيجر . وتلاهما سائح فرنسوي اسمه كاليه فوصل مدينة تمبكتو سنة ١٨٢٨ . ثم سائح آخر اسمه لنختجال فسار من النيجر الى بحيرة تشاد وتوجه شرقا ماراً في وداي ودارفور والسودان المصري

على ان من اعظم المكتشفين لفنستون الرحالة الانكليزي الشهير فانه سافر الى افريقية سنة ١٨٤٠ وكان طبيباً مرسلا فبدأ سياحته من مدينة الراس وظل يتوغل شمالا فما جاءت سنة ١٨٤٩ حتى كان على بعد ٨٠ ميلا من مدينة مفكنج جنوباً و١١٠٠ ميل من مدينة الرأس . واكتشف بحيرة نجامي وما زال يوالي السفر حتى بلغ ساحل الاتلنتيكي عند مدينة لواندا ثم عاد الى نهر الزمبيسي واكتشف الشلالات التي سماها باسم الملكة فكتوريا وبحيرتي نياسا وشيرا اللتين يجري نهر الزمبيسي منهما

وسنة ١٨٥٩ سافر الضابطان الانكليزيان برتون وسبيك من زنجبار قصد اكتشاف بحيرة كثر التحدث بها في تلك الايام فبلغا بحيرة تنجنيكا ثم عادا الى زنجبار وافترقا فسافر برتون جنوباً وسبيك شمالا برفقة صديق له واكتشفا بحيرة فكتوريا نيانزا سنة ١٨٦١ . وفيما كانا يدوران حولها وجدا نهراً كبيراً يخرج منها (البحر الابيض) ويجري شمالا فسارا حذاءه حتى التقيا بالسر صموئيل باكر (باشا) وكان قد قدم من الخرطوم واستأنف باكر المسير غرباً حتى اكتشف بحيرة البرت نيانزا . وهذه البحيرة وبحيرة فكتوريا نيانزا هما البحيرتان اللتان يستمد النيل اكثر مائه منهما

وفي سنة ١٨٦٥ قصد لفنستون بحيرة تنجنيكا واكتشف بحيرتين اخريين ثم انقطعت اخباره عن اوربا فأوفد المستر غوردون بنيت صاحب جريدة نيويورك هرالد الرحالة ستنلي للتفتيش عنه كما هو معلوم فسافر ستنلي من زنجبار غرباً حتى بلغ يوجيجي على ساحل بحيرة تنجنيكا الشرقي فوجده فيها . ودار ستنلي حول بحيرة فكتوريانيانزا ثم اكتشف بحيرة البرت ادورد وتوجه غرباً فبلغ نهر الكنجو وسار حتى ساحل الاتلنتيكي . وفي سنة ١٨٧٨ عاد يسعى في اجتياز افريقيا من الغرب الى الشرق للتفتيش عن امين باشا وانقاذه. فسافر من مصب الكنجو فرأى في سفرته هذه جبال القمر

وتلاه سياح ورواد آخرون فاكتشفوا بلاداً أخرى مجهولة منهم ذو تلدسن سمث فانه سافر من بربرة واكتشف الارض الواقعة بين بحيرة رودلف والنيل . ومنهم جروجان فانه اجتاز القارة من مدينة الراس الى القاهرة فكانت سياحته هذه خاتمة الاسفار الافريقية المشهورة التي تمت في القرن الماضي

الاصقاع المتجمدة الشمالية

كان لرواد الاصقاع المتجمدة الشمالية في القرن الماضي ثلاث غايات يرمون اليها الاولى اكتشاف طريق شمالية غربية توصل الى الهند . والثانية اكتشاف طريق شمالية شرقية . والثالثة بلوغ القطب الشمالي . اما الغايتان الاولى والثانية فتمتا لهم فان مكلور اكتشف طريقاً صعبة من بوغاز بيرين الى اوربا بين سنة ١٨٥٠ و١٨٥٣ والبارون نورد نسجولد العالم الاسوجي سار حذاء ساحل آسيا فوصل الاوقيانوس الباسيفيكي وكان ذلك حوالي سنة ١٨٨٠ . على ان اكتشاف الطريقين لم يفد الناس فائدة تذكر ولا يبعد ان الطريق الثانية تفيد تجار الخشب والفرو وما اشبه من حاصلات البلدان الشمالية متى تقدمت تجارة سيبيريا

بقيت الغاية الثالثة اي اكتشاف القطب الشمالي وهي وان لم تتم بعد الا انها كادت تتم على ايدي ابطال المكتشفين مثل هول ولوكوود وننسن وامبروزي فان كلا منهم تقدم نحو القطب عن سالفه حتى لم يبق بين القطب وآخر مرحلة بلغوها سوى ٣ درجات و٢٧ دقيقة وكان قد سبق هؤلاء الاربعة نفر من الرجال فاكتشفوا اماكن عديدة لم تكن قد اكتشفت بعد — اشهرهم مكنزي وبري وفرنكلين وروس. على ان أفجع تلك الاسفار ما ألم بالسر جون فرنكلن ورفاقه وكانوا ١٢٨ نفساً . وتحرير الخبر انه ركب سفينتين هو وجماعته في شهر مايو سنة ١٨٤٥ ثم انقطع خبرهم

واحى أثرهم. وعرف فيما بعد ان الجمد سد المسالك على سفينتهم فمات فرنكلين في يونيو سنة ١٨٤٧ وكان عند جماعته حينئذ زاد يكفيهم سنة ومات ٢٤ نفساً منهم ولما كان الجمد لا يزال يكتنف السفينتين عقدوا النية ان لا ينتظروا ذوبانه بل يفتحوا لانفسهم طريقاً. ولم يعلم شيء عنهم بعد ذلك مع ان حملات كثيرة ارسلت براً وبحراً للتفتيش عنهم في كل الجهات حتى اذا كانت سنة ١٨٥٤ التقى الرحالة راي بشاب من الاسكيمو فاخبره هذا ان قومه رأوا منذ اربع سنوات ٤٠ رجلا ابيض يجرون قارباً في مكان معلوم. ولم يمض على ذلك اشهر قليلة حتى عثر الرحالة المذكور على ثلاثين جثة من جثثهم

وفي سنة ١٨٥٠ أرسل مكلور وكولنسن للتفتيش عن سائر المفقودين من رجال الحملة من الغرب الى الشرق فلقي حملة قادمة من الشرق بقيادة السر ادورد بلتشر ولم ير هو ولا غيره اثراً لفرنكلين ولا سمعوا بما جرى له مع انهم والوا البحث والتنقيب تسع سنوات متتابعة. إلا ان امرأة فرنكلين لم تيأس فجهزت سنة ١٨٥٩ حملة سارت بقيادة مكلنتوك فعثرت على هيكل انسان في بلاد الملك وليم وتوصل هوبسون الى معرفة ما جرى للحملة من سنة ١٨٤٥ الى ١٨٤٨. وكانت نتيجة هذه الحملة معرفة مواقع الجزر الممتدة على الساحل الشمالي من اميركا الشمالية

الاصقاع المتجمدة الجنوبية

حول القطب الجنوبي بقعة لم تطأها قدم انسان بعد وهي ضعف اوربا مساحة ولا يعلم ما اذا كانت ارضاً يابسة او بحراً كبيراً

وأهم الذين قصدوا تلك الاصقاع للاكتشاف الكبتن سمث فانه اكتشف جزائر شتلاند الجنوبية سنة ١٨١٦ وتلاه كثيرون غيره واكتشفوا اراضي أخرى ابعدها على عرض الدرجة الثامنة والسبعين وكان الذي بلغ هذا العرض السر جيمس روس من مشاهير المكتشفين في الاصقاع الشمالية كما تقدم وذلك سنة ١٨٤٢. ولم يتجاوز احد هذا الحد إلا بور شجرافنك سنة ١٨٩٩ فانه بلغ عرض ٧٨و٥٠. وهذا اقصى ما وصل اليه انسان في تلك المجاهل السحيقة حتى آخر القرن الماضي

استراليا

استراليا قارة تساوي الولايات المتحدة الاميركية مساحة وعدد سكانها الانكليز الآن ستة ملايين لا غير. وفي أواخر السنة الاخيرة من القرن الماضي اتحدوا والفوا حكومة مستقلة استقلالا ادارياً وقد كانت استراليا في السنة الاولى من القرن الماضي

بلاداً مجهولة تسكنها قبائل همجية منحطة في سلم المدنية وجماعة من الانكليز متفرقة على ساحل البلاد المعروفة اليوم باسم نيوسوث ويلس واما سائر اقسام القارة فلم يكن يعرف عنها شيء

وفي أواخر القرن الماضي اكتشف الكبتن كنغ مصاب انهر استراليا وسواحلها الشمالية والغربية وما بينها . وقام بعده ستيوارت فاكتشف نيوسوث ويلس واوغل في القارة حتى بلغ أواسطها وعاد فجدد الكرة واجتازها من جهة الى جهة سنة ١٨٦٢ فكان أول ابيض فعل ذلك وتلاه كثيرون فاكتشفوا أماكن مجهولة حتى لم يبق من القارة سوى أماكن قليلة لم تكشف ومعظمها صحارى قاحلة

اميركا الشمالية

أهم الاكتشافات الجغرافية التي جرت في القرن التاسع عشر كان في اميركا الشمالية وخصوصاً الولايات المتحدة الغربية. ومعظم الفضل في ذلك عائد على المستعمر والمعدن لا على الجغرافي ولا السائح المكتشف . وقد كانت البلاد الواقعة غربي نهر مسسيبي والجبال الصخرية في جملتها مجهولة سنة ١٨٠١ . فكانت كتب الجغرافية المعروفة حينئذ تصف اميركا الشمالية بانها بلاد « معظمها سهول مستوية قليلة الانحدار ليس فيها من الجبال الشاهقة غير الجبال الواقعة نحو القطب والجبال التي تخرق الولايات المتحدة الشرقية وتسمى جبال الغاني »

إلا ان كثيرين من الرواد والمكتشفين ساعدوا في اكتشاف بعض الاماكن المجهولة مثل وادي نهر مسور والجبال الصخرية وكليفورنيا وغيرها . ومن أولئك الرواد فريمونت ولويس وكلارك وبيك وبونفيل وبويل وغيرهم كثيرون

اميركا الجنوبية

ليس بين القارات الست قارة يجهلها الناس الآن مثلما يجهلون هذه القارة مع أنها كانت منذ مئة سنة اشهر القارات واعرفها ما عدا اوربا . فان الجزويت أوغلوا فيها بطريق الانهر التي تخترقها من كل جانب حتى بلغوا قلبها ورسموا خرائط الاماكن التي مروا بها

ومن اشهر مكتشفيها همبلت المشهور فانه ساح في كثير من بلادها وكان اول من توسع في تفسير كلمة « جغرافية » فاطلقها على وصف اقليم البلدان وهوائها وتوزع الحيوان والنبات فيها وطبيعة تربتها ولم يقتصر على رسم الانهر والجبال وغيرها كما

ترسم الخرائط عادة . وتلاه مكتشفون آخرون مثل سبيكس ومارتيوس وشومبرج وكريفو فاكتشفوا كثيراً من الأماكن التي لم تكتشف قبلا فصارت اميركا الجنوبية على ما تراها الآن

اسيا

كان ماركو بولو الاوربي الوحيد الذي جاب جزءاً كبيراً من اسيا قبل سنة ١٨٠٠ وما استهل القرن التاسع عشر حتى امها المكتشفون من كل ملة ونحلة ورسموا خارطتها فجاءت مضبوطة في مجملها وأوفدت روسيا عدداً عديداً من الرجال للاكتشاف من الشمال الشرقي فقامت انكلترا تناظرها وارسلت رجالها من الجنوب . وربما كان اكتشاف مجاهل اسيا اصعب مراساً وابعد منالا من اكتشاف مجاهل افريقية او استراليا او اميركا الشمالية لان الاجنبي كان يلقى فيها مئات من ملايين الشعوب والقبائل التي تختلف في طباعها واخلاقها عن متوحشي افريقية فتقف في سبيله وتحول دون تقدمه

وفي سنة ١٨٢٩ دخل همبلت اواسط اسيا وسواحل بحر قزبين . وعقبه المرسل الفرنسوي هوك فعبر بلاد التبت سنة ١٨٤٤ — ١٨٤٥ وأقام عدة اشهر في لاسا عاصمتها . وساح بلجراف في بلاد العرب حوالي سنة ١٨٦١ واجتازها من جهة الى جهة . ثم قام السائح جارنييه المشهور وساح في كمبوديا والصين وقطع اكثر من ٥٠٠٠ ميل في بلاد لم يعرفها الغربيون قبلا . وتلاهم كثيرون غيرهم مثل سفن هدن ورشتوفن وروكهل فاكتشفوا اقاليم كثيرة ومسحوها وعينوا مواقعها في الخارطات فاصبحت اسيا وهي تكاد تعرف كلها

الخاتمة

وغاية القول ان تقدم الجغرافية في القرن التاسع عشر كشف خبايا كل زواية من زوايا الأرض امام اهالي اوربا واميركا . بل ان تقدم العلوم الجغرافية فيه اماط النقاب عن اصل الأرض وكيفية تكونها . فان علم الجيولوجيا الذي يبحث في طبيعة قشرة الأرض وتكونها يخبرنا عن الدور الجليدي ويدلنا بواسطة البقايا المتحجرة على ان الحياة ظهرت في الارض منذ الوف الملايين من السنين . ثم ان علم الظواهر الجوية الذي يبحث في أحوال الهواء المحيط بالارض وعلم اعماق البحر انما هما نتيجة تقدم الجغرافية في القرن الماضي . وسيكون مدار بحث الانسان في هذا القرن على سبر غور البحار لحل اسرارها وهتك استارها

مقتطف نوفمبر ١٩٠٤

تخطيط البلدان ورسم الخرائط

يسألنا قراء المقتطف مرة بعد أخرى عن اسم المكتشف الأول لهذا الامر او ذاك والمستنبط الاول لهذه الآلة او تلك والواضع الاول لهذا العلم اوذاك ونحوذلك من المسائل الدالة على رغبة السائل في البحث والتنقيب فنجيبهم بما يحضرنا او بما نقف عليه في كتب القوم . وقد سئلنا الآن عن واضع علم الجغرافيا المعروف بتخطيط البلدان وكنا قد عثرنا على صورة الخريطة التي رسمها الشريف الادريسي منذ نحو ٨٠٠ سنة بامر الملك رجار صاحب صقلية فرأينا ان نرسمها ونضيف اليها رسم الخريطة التي وضعها بطليموس قبل ذلك ونجمع مقالة وجيزة في هذا الموضوع نذكر فيها تاريخ هذا العلم منذ نشأته الى ان بلغ العرب وانتقل منهم الى الافرنج

اول صورة يتصورها المرء للارض انها جسم مسطح مستدير. كذا كنا نتصورها ونحن اطفال وكذا كان الناس يتصورونها في طفولية نوع الانسان وكانوا يحسبون البحر يحيط بها من كل ناحية . واول من ركب البحر وبلغ الاقطار الشاسعة واخبر غيره بما رأى فيها ووصلت اخباره الينا الفينيقيون اسلاف السوريين تلك الامة التي كانت لا يقر لها قرار الا بالسفر وركوب الاخطار مثل ابنائها في هذا العصر فانك تراهم منتشرين في كل الممالك والبلدان من اليابان شرقاً الى اقاصي اميركا غرباً ومن بلاد الروس شمالا الى بلاد الراس جنوباً فلا تخلو قارة ولا مملكة منهم . ويظهر مما أورده هوميروس في اشعاره انهم كانوا قد جابوا البحر الاسود وقطعوا البحر المتوسط ودخلوا الاوقيانوس الغربي (الاتلنتيكي) واستوطنوا اسيا الصغرى في القرن الثاني عشر قبل المسيح وبلاد اليونان في القرن الحادي عشر وقرطاجنة في القرن التاسع. ويقال انهم طافوا حول افريقية كلها فساروا في البحر الاحمر جنوباً وداروا حول رأس الرجاء الصالح من جهة الجنوب وظلوا سائرين غرباً وشمالا الى ان دخلوا بوغاز جبل طارق وقطعوا البحر المتوسط وعادوا الى مصر . وكان ذلك في القرن السابع قبل المسيح في عهد الملك نخو من ملوك الدولة السادسة والعشرين من الدول المصرية . والدليل على صحة ما تقدم انهم قطعوا البحر حيث صارت الشمس عن يمينهم وهم متجهون غرباً ولا يكون ذلك إلا اجنوبي افريقية. وقد استبعد هيرودوتس هذا الامر

ولكنه صحيح وهو دليل قاطع على صدق الخبر

وفي القرن السابع والسادس قبل المسيح زادت معارف الناس عن شكل الارض واتساعها وبلغ بحارة قرطاجنة الفينيقيون الجزائر الانكليزية في اقصى الشمال ووصفوها . ويقال ان طاليس وتلميذه انكسمندر اول من وضع رسم الخرائط وازال بعض الاوهام وذلك في القرن السابع قبل المسيح كما سيجيء

ثم نشأ هيرودوتس ابو التاريخ وابو الجغرافيا فوصف الممالك التي رآها في اسفاره الشاسعة وهي تشمل بلداناً طولها من الشرق الى الغرب الف وسبعمئة ميل وعرضها من الشمال الى الجنوب الف وستمئة وستون ميلا فضمن تاريخه المشهور كل ما كان يعلم عن سطح الارض في عصره . وكان المظنون حينئذ ان الارض تنتهي جنوباً بالاوقيانوس الهندي وغرباً بالاتلنتيكي وشرقاً باطراف بلاد الفرس الشرقية وشمالا ببلاد الكهرباء التي بلغها الفينيقيون في بحر بلطيك

ثم قام الاسكندر المقدوني ودوخ بلاد المشرق وبلغ بلاد الهند وبعث بالعلماء يجوبون الاقطار القاصية ويجمعون له اخبارها ونوادرها وكل غريب فيها حيواناً كان او نباتاً فكانت غزواته السياسية مشفوعة ببعثات علمية اتسع بها نطاق المعارف الطبيعية والجغرافية

ولما كان الاسكندر يخترق آفاق المشرق كان فيثياس المرسيلي الفينيقي يمخر بحار المغرب فدار حول اسبانيا وغاليا واجتاز بريطانيا ودخل الاوقيانوس الشمالي وبلغ جزيرة تولى التي يظن انها ايسلندا . قال ابو الفدا انها على نهاية المعمور في الشمال

هذا من حيث المعارف الجغرافية عند الاقدمين بنوع عام ، اما تخطيط البلدان او رسم الخرائط فاقدم من ذلك كثيراً وأول خريطة وصلت الينا من الاقدمين خريطة مصرية قديمة رسمت في عهد رعمسيس الثاني على ما يظن وهي الآن في متحف تورين وفيها رسم وادي الايكة حيث كانت مناجم الذهب في بلاد النوبة . والبلاد جبال قاحلة ومفاوز محرقة يهلك فيها الانسان والحيوان في السير الى تلك المناجم . وفي الخريطة رسم الشعاب والصخور وقد أعلمت الجبال التي وجد الذهب فيها بحبر احمر . وفيها ايضاً اشارات الى الآبار التي في الطريق والمباني والمرافق المنشأة بقرب المناجم والطرق الممتدة الى البحر ولم يترك شيء في ذلك المكان الا رسم في تلك الخريطة. ومن هذا القبيل خريطة اخرى فيها رسم بحيرة الفيوم والمدن والهياكل التي حولها

ووجدت خريطة بابلية قديمة رسمت فيها مدينة سوسه واسوارها وحصونها وقصر الملك الذي فيها وساحة المدينة في وسطها يحيط بها رواق من ثلاث جهات ورستاق المدينة حولها فيه اشجار النخيل والمباني منتشرة فيه الى ضفة النهر . والمظنون ان هذه الخريطة صنعت في القرن السابع قبل المسيح

ولكن الخرائط البابلية والخرائط المصرية كانت قاصرة على رسم ما في بابل ومصر ولم تتجاوز الى البلدان القاصية ولا يبعد ان يكون الفينيقيون قد سبقوا غيرهم الى رسم الخرائط الكبيرة التي ترشد البحارة في سلك البحار لكن لم يصل الينا شيء منها. واول امة صنعت خريطة تشمل المسكونة كلها في ما يعلم الامة اليونانية فقد ذكر سترابون المؤرخ ان انكسمندر الذي ولد سنة ٦١٢ قبل المسيح صنع خريطة رسم فيها المسكونة كلها . وقال ديوجنس لارتس عنه انه اول من صنع الخرائط والمزاول (الساعات الشمسية) . اما المزاول فقد رجح الدكتور دالي انها نقلت الى بلاد اليونان من بلاد الكلدان . وقال هيرودوتس انه لما ذهب ارستاغورس الى كليومينس ملك اسبرطة سنة ٥٠٤ قبل المسيح ليحمله على غزو بلاد الفرس اراه صفيحة من النحاس عليها اسم دائرة الارض بكل بحارها وانهارها

ويقال ان هكتاتيوس الذي كان معاصراً لانكسمندر اصلح الخريطة التي رسمها انكسمندر بعد ان جاب الاقطار وكتب رحلته في كتابين جغرافيين بقي الناس يعتمدون عليهما قروناً كثيرة بعده

وكان الناس الى ذلك الحين يعتقدون ان الارض مسطحة مستطيلة من الشرق الى الغرب وتحتها قبو طويل تمر فيه الشمس ليلا وهو الجحيم (طرطاروس) مسكن أرواح الاشرار . ووراء اعمدة هرقل (جبل طارق) من ناحية الغرب خلائق غريبة الاشكال والى شمالها باب الجحيم ووراءه في جهة الغرب بعد طرف الارض اقطار الفردوس بلاد صيفها دائم ونسيمها لا ينقطع هناك تسكن نفوس الذين ارتضتهم الآلهة وهناك جنات فيها تفاح ذهبي. والى الشمال والشمال الشرقي الشماريون المقيمون في ظلمة دائمة والهبربوريان [1] الذين لا يتعبون ولا يمرضون بل يعيش الواحد منهم الف سنة في نعيم مقيم

(١) الشماريون نسبة الى الشماري اقوام يزعم انهم يسكنون كهفاً مظلماً والهبربوريان من هير وراء وبورياس زوبعة اي الساكنون غير البلاد التي تعصف فيها الزوابع

إلا ان طاليس الحكيم قال قبل ذلك بكروية الارض وبأن دائرة البروج غير موازية لخط الاستواء بل مائلة عليها وقسم الارض الى خمس مناطق او خمسة اقاليم. وخلفه انكسمندر وقال بكروية الارض ايضاً ويقال انه صنع كرة تمثلها. وجاء فيثاغورس بعده ولم يكتف بكروية الارض بل قال انها تدور حول الشمس لكنه كان يعلم بذلك سراً واذا تكلم جهاراً قال ان الشمس تدور حول الارض مخافة ان يكذبه الجمهور ويكفروه

ثم سافر فيثياس المرسيلي شمالاً فبلغ جزيرة ايسلندا كما تقدم ويقال انه اول من انتبه الى حساب العرض فانه رأى ظل المزولة يختلف طولاً في وقت معلوم باختلاف البعد عن خط الاستواء فاستدل به على مقدار هذا البعد اي على عروض الاماكن وكان ذلك في عهد الاسكندر كما تقدم

وبنى الاسكندر مدينة الاسكندرية في مصر لكي تكون مقر تجارة المشرق والمغرب فجعلها خلفاؤه البطالسة داراً للعلم والعلماء ايضاً وجمعوا فيها كل ما وصلت يدهم اليه من كتب العلم . وقام في ذلك الحين رجل اسمه اراتوستنس كان كتبياً في مكتبة الاسكندرية وعالماً كبيراً وبه ابتدأ علم الجغرافية حقيقةً . وكان الناس الى ذلك الحين يقيسون الابعاد بين الاماكن بالمراحل اى بالايام التي تقضى في قطعها ، ولا يخفى ما يقع في ذلك من الخطأ ، فقال انه يتعذر رسم خريطة صحيحة ما لم تعلم مساحة سطح الارض ولا تعلم المساحة ما لم يعلم محيط الارض وهذا يعلم اذا قيست درجات قوس من الهواجر وقيس طولها ثم تعلم الابعاد بعد ذلك بقياس الدرجات . واهتم بهذا الامر فوجد ان نور الشمس يقع عمودياً في اصوان وقت الظهر في الانقلاب الصيفي لانه اذا دخل بئراً عمودية حينئذ انار قاعها كله ولم يبق فيه ظلاً وفي ذلك اليوم عينه يكون نورها مائلاً في الاسكندرية سبع درجات و١٢ دقيقة فالبعد بين الاسكندرية واصوان سبع درجات و١٢ دقيقة اي جزء من خمسين جزءاً من محيط الارض وطول هذا الخط معروف فعرف منه محيط الارض. وكانت مكتبة الاسكندرية حاوية كل ما كتبه الذين سبقوه في الجغرافية فجمع منها كتاباً كبيراً وصنع خريطة للارض كانت أكمل ما صنع الى ذلك الحين وأصح من خريطة بطليموس الآتي ذكرها من بعض الوجوه

ونشأ بعده هبرخس الفلكي الشهير وهو اول من بدأ بقسمة سطح الارض الى دوائر وهمية تمر حولها من قطبة الى قطبة وتقطع خط الاستواء على ابعاد متساوية وهي خطوط الليل و بدوائر اخرى موازية لخط الاستواء ترسم على ابعاد متساوية وتصغر رويداً رويداً الى ان تبلغ القطبتين وهي خطوط العرض

وعني الرومان برسم الخرائط لسلطتهم الشاسعة لكنهم كانوا يهتمون غالباً برسم الطرق الموصلة بين المدن المختلفة وما تمر به من الجبال والاودية والينابيع ارشاداً لجنودهم في غزواتهم ولقوافل التجار في رحلاتهم

وفي القرن الثاني قبل المسيح قام مارين الصوري واطلع على ما كتبه السلف في علم الجغرافيا وجمع اخباراً كثيرة نقلها عن البحارة واهل الرحلات والف كتاباً كبيراً في الجغرافيا اضاف اليه كثيراً من الخرائط رسم فيها خطوط الطول والعرض حتى تظهر مواقع المدن والاماكن الشهيرة كما هي . وعلى هذا الكتاب كان اعتماد بطليموس في جغرافيته الشهيرة كما اعترف هو نفسه . فان كان التاريخ قد بخل علينا بذكر الخرائط الاولى التي صنعها السوريون للبلدان الشاسعة التي اكتشفوها في رحلاتهم فهو لم يبخل بذكر هذا الكتاب الجغرافي الكبير الذي الفه مارين الصوري وعليه كان اعتماد بطليموس في جغرافيته. و يقال ان غاية ما فعله بطليموس تنقيح هذا الكتاب وقد اخطأ في هذا التنقيح قدر ما اصاب . وبطليموس هذا واسمه كلوديوس بطليموس من يوناني مصر نشأ في الاسكندرية وكان حياً فيها سنة ١٦١ للمسيح واطلع على كتب من تقدمه واستخلص منها ومن مبتكراته العلمية كتابين كبيرين ارتشد بهما الناس ونسجوا على منوالهما الى ان بزغت شمس العلوم الحديثة منذ قرنين او ثلاثة وهما كتاب الجغرافيا المار ذكره وكتاب المجسطي في الفلك . وكتاب الجغرافيا هذا في ثمانية اجزاء ذكر فيها كل الاماكن المعروفة ووصفها وصفاً موجزاً وذكر اطوالها وعروضها وقد حسب الطول من جزائر كناري (الجزائر الخالدات) حاسباً انها ابعد المعمور غرباً لكنه حسب انها على درجتين ونصف غربي رأس سنت فنست بافريقية والحال انها على تسع درجات وثلث منه . وصنع ستاً وعشرين خريطة للبلدان المختلفة وخريطة واحدة تجمعها كلها

وخريطة بطليموس على ما تظهر هنا ليست افضل من خريطة اراتوستنس ولا

بطليموس صاحب الجغرافيا والمجسطي

امام الصفحة ٢٨

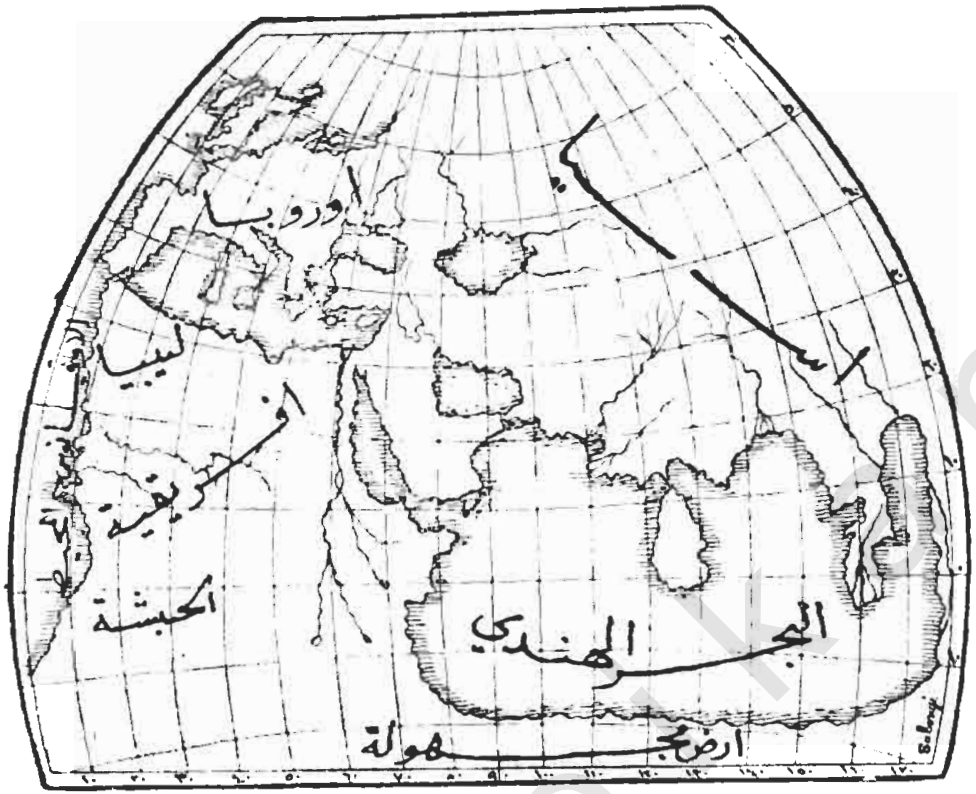

خريطة بطاميوس

خريطة الشريف الادريسي

obeikandl.com

يمتاز عليها الا بخطوط الطول والعرض ورسمها منحنية لكي تظهر بها كروية الارض وقد وصل كتابه الينا سليماً ووجدت نسخة يونانية منه كتبت منذ نحو سبع مئة سنة وهي الآن في دير الروم بجبل اثوس

وقد رسم الاقدمون بطليموس بصورة شيخ جليل القدر متكىء على صفيحة تحيط بها ابراج السماء ونقل هذه الصورة الدكتور دالي رئيس الجمعية الجغرافية الاميركية فنقلناها عنه

واطبق ليل الجهل بعد بطليموس ولكن بقيت كتبه تنير حنادس الظلم الى ان قويت شوكة العرب واستعانوا بالسوريين على ترجمة كتب اليونان واهتموا بعلم الجغرافية فنسجوا على منوال بطليموس واضافوا الى معارف اليونان والرومان ما عرفوه باسفارهم الكثيرة في اسيا وافريقية والاوقيانوس الهندي

قال الملك المؤيد ابو الفدا صاحب حماه في مقدمة كتابه تقويم البلدان " اني لما طالعت الكتب المؤلفة في البلاد ونواحي الارض من الجبال والبحار وغيرها لم اجد فيها كتاباً موفياً بغرضي . فمن الكتب التي وقفت عليها في هذا الفن كتاب ابن حوقل وهو كتاب مطول ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً غير انه لم يضبط الاسماء وكذلك لم يذكر الاطوال ولا العروض فصار غالب ما ذكره مجهول الاسم والبقعة ومع جهل ذلك لاتحصل فائدة تامة . وكتاب الشريف الادريسي في الممالك والمسالك وكتاب ابن خردادبه وغيرهما . وجميعهم حذوا حذو ابن حوقل في عدم التعرض الى تحقيق الاسماء والاطوال والعروض . اما الزيجات والكتب المؤلفة في الاطوال والعروض فانها عرية عن تحقيق الاسماء وضبطها مثل كتاب الانساب للسمعاني والمشترك لياقوت الحموي وكتاب مزيل الارتياب عن مشتبه الانتساب وكتاب الفيصل وكلاهما لابي المجد اسمعيل بن هبة الله الموصلي، فانها اشتملت على ضبط الاسماء وتحقيقها من غير تعرض الى الاطوال والعروض . ومع الجهل بالاطوال والعروض يجهل سمت ذلك البلد . ولما وقفنا على ذلك وتأملناه جمعنا في هذا المختصر ما تفرق من الكتب المذكورة من غير ان ندعي الاحاطة بجميع البلاد او بغالبها فان ذلك امر لا مطمع في الاحاطة به ، فان جميع الكتب المؤلفة في هذا الفن لاتشتمل الا على القليل الى الغاية »

ولم يحط ابو الفدا بكل ما كتبه جغرافيو العرب قبله ولم يقتصر الذين جاءوا بعده على ما عرف في ايامه ولذلك ففي كتبهم اكثر مما ذكر في كتابه . وقد وفى هذا الموضوع حقه في مقالتين مسهبتين أدرجت الاولى منهما في المجلد السابع من المقتطف والثانية في المجلد الثالث عشر منه

اما الخرائط الجغرافية التي كان العرب يرسمونها فاقتفوا بها اولا خطوات الرومان اي كانوا يرسمون المدن والطرق التي يسار بها اليها .ثم دعا الملك روجر صاحب صقلية الشريف الادريسي في القرن الثاني عشر للميلاد فألف له كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق شرح به كرة ارضية صنعها من الفضة وصنعت خريطة عن هذه الكرة وجعل الجنوب فيها الى فوق والشمال الى اسفل على ضد الخرائط المعروفة الآن

والشريف الادريسي من الادارسة اصحاب المغرب الاقصى ولد بسبتة تجاه جبل طارق سنة ٤٨١ للهجرة (١٠٨٩ للمسيح) ودرس بقرطبة من مدن الاندلس وطاف في اسبانيا وافريقية واسيا الصغرى ودعاه الملك روجر الثاني صاحب صقلية اليه لما بلغه عن علمه وفضله واجزل صلاته وعهد اليه في تأليف جغرافية مسهبة يصف بها بلدان المعمور، بانياً وصفه على المشاهدة فبعث بالرواد الى الاقطار المختلفة ليجوبوها ويحملوا اليه اوصافها وقياس اطوالها واعراضها ثم جمع ما كتبوه ولخصه في كتابه نزهة المشتاق. والظاهر انه غير الكتاب الذي ذكره ابو الفدا . ولم يتم تأليف نزهة المشتاق الا سنة ١١٥٤ وهو اوسع جغرافية الفت الى ذلك الحين .ولخص هذا الكتاب وطبع في كسروان وقد طبع جانب منه في ليدن سنة ١٨٦٦ اما الكتاب كله فلم يطبع حتى الآن

***

لقد كان اعتماد العرب على اليونان يقرب من العبادة فكانوا يأخذون بقولهم ولو تبينوا فساده بالامتحان، قال البيروني «الروم والهند اصدق سائر الامم عناية بهذه الصناعة ، ولكن الهند لا يبلغون غاية اليونانيين فيعترفون لهم بالتقدم ولمثله نميل الى آرائهم ونؤثرها . فاما الهند ففي كتبهم ان نصف كرة الارض ماء ونصفها طين يعنون البر والبحر . وان على ترابيع خط الاستواء اربعة مواضع هي جمكوت الشرقي والروم الغربي وكنك الذي هو القبة والمقاطر لها فلزم من كلامهم ان العمارة في النصف الشمالي

باسره » . وان صح ما فهمه البيروني من كلام الهند فهم يعنون بالمقاطر اميركا الشمالية وذلك دليل واضح على انهم كانوا يعرفونها . ثم قال « واما اليونانيون فقد انقطع العمران من جانبهم ببحر اوقيانوس فلما لم يأتهم خبر الا من جزائر فيه غير بعيدة عن الساحل ولم يتجاوز المخبرون عن الشرق ما يقارب نصف الدور (الدائرة) جعلوا العمارة في احد الربعين الشماليين لا ان ذلك موجب امر طبيعي فمزاج الهواء الواحد لا يتباين ولكن امثاله من المعارف موكول الى الخبر من جانب الثقة فكان الربع دون النصف هو ظاهر الامر والاولى ان يؤخذ به الى ان يرد دليل لغيره خبر طارىء »

وهذا الكلام حسن ودليله هو الدليل العلمي المعول عليه الآن وهو ان امثال هذه المعارف موكول الى الخبر من جانب الثقة والاولى بان يؤخذ به الى ان يرد دليل على غيره ولكن كان الاولى بعلماء العرب ان يقفوا على ادلة اهل الهند في حسبانهم الارض منتشرة في النصف الشمالي كله فانها اذا كانت مبنية على الخبر من جانب الثقة فهي تشير الى اميركا الشمالية بلا ريب ولو فعلوا لعرفوا قارة اميركا قبل غيرهم

ويظهر تمسك العرب باقوال اليونان ولو خالفها اختبارهم مما ذكره ابو الفدا من تحقيق طول الدرجة الارضية قال « وقد قام بتحقيق طول الدرجة طائفة من القدماء كبطليموس صاحب المجسطي وغيره فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهمة على الارض ستة وستين ميلا وثلثي ميل . ثم قام بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين في عهد المأمون وحضروا بامره في برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد ان اخذوا ارتفاع القطب محرراً في المكان الذي افترقوا منه واخذت احدى الفرقتين في المسير نحو القطب الشمالي والاخرى نحو القطب الجنوبي وساروا على اسد ما امكنهم من الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين في الشمال وانحط للسائرين في الجنوب درجة واحدة . ثم اجتمعوا عند المفترق وتقابلوا على ما وجدوه فكان مع احداهما ستة وخمسون ميلا وثلثا ميل ومع الاخرى ستة وخمسون ميلا فأخذ بالاكثر . وقد تقدم ان القدماء وجدوا حصة الدرجة ستة وستين ميلا وثلثي ميل فبينهما من التفاوت عشرة اميال فينبغي ان يعلم ان ذلك انما هو للخلل في العمل ، لان مثل هذه الاعمال لا يخلو من تفاوت اذ لا يمكن الاحتراز من المساهلة والمسامحة تارة في استقامة الشيء على خط نصف النهار وتارة من جهة الذرع وغير ذلك ... وغالب عمل المتأخرين

انما هو على رأي القدماء لتعلق كثير من المسائل به »

ولم يكتف علماء العرب بهذا القياس بل قاسوا قياساً آخر بين تدمر والفرات فوجدوا الدرجة ٥٧ ميلا من امیالهم ومع ذلك بقوا على قياس بطليموس . لكنهم زادوا على ما نقلوه عن بطليموس في قياس عروض الاماكن ولا سيما ماتاخم منها بحر الروم شرقاً وما وقع منها في بلاد العرب واكثر الممالك الشرقية التي دانت لهم

ومن اهم الحقائق الجغرافية التي عرفها علماء العرب وجهلها علماء الافرنج الذين جاءوا بعدهم ان اسيا واوربا والجانب الاكبر من افريقية تشغل ربع سطح الكرة الارضية لا غير . قال ابو الفدا في مقدمة كتابه تقويم البلدان ان خط الاستواء هو الدائرة العظيمة المتوهمة التي تمر بنقطتي الاعتدالين الربيعي والخريفي وتفصل الارض بنصفين احدهما شمالي والآخر جنوبي واذا توهمت عظيمة اخرى تمر بقطبي هذه الدائرة انقسمت الارض بها ارباعاً احد الشماليين هو الربع المسكون وثلثة الارباع غير معلومة الاحوال والاكثر على انها مغمورة بالماء . وانما حكم بان المعمور ربع لانه لم يوجد في ارصاد الحوادث الفلكية كالخسوفات تقدم ساعات الواغلين في المشرق لها على ساعات الواغلين في المغرب زائداً على اثنتى عشرة ساعة لكل ساعة خمس عشرة درجة وخمسة عشر في اثني عشر بمئة وثمانين وهو نصف الدور . وانما قيل ان المسكون الشمالي لانه لا يوجد اظلال انصاف نهار الاعتدالين في شيء من المساكن جنوبياً الا في قليل من مساكن على اطراف الزنج والحبشة لكن لايزيد عرضها على ثلاث درجات . وفي جانب الشمال ايضاً لايمكن ان يسكن في ما جاوز عرضه تمام الميلى الكلي عرض ست وستين درجة ونصف تقريباً . والبحر محيط باكثر جوانب الارض، اما من جانب المغرب وشماله والجانب الشرقي فمعلوم ، واما جنوب المغرب فانه لم يصل احد فيه الى البحر، وكذلك شمال المشرق ليس لنا وقوف يقيني على البحر الذي فيه »

وفي اواخر القرن الثالث عشر طاف ماركو بولو البندقي في ممالك اسيا مع ابيه وعمه وكانا من كبار التجار و بلغ بلاد الصين واقام عند صاحبها زماناً عاملاً له ثم عاد الى بلاده ووصف الممالك التي رآها وصفاً مسهباً يذكرنا بوصف ابن بطوطة كأن احد الرجلين اقتفى الآخر . فاتسعت المعارف الجغرافية بذلك وصنعت خريطة جديدة

للعالم مبنية على وصف ماركو بولو ووصف رحالة آخر اسمه كدمستو ونقشت على جدار دير في البندقية لكن اهالي اوربا كانوا قد انكروا كروية الارض زعماً منهم ان القول بها مخالف لنص التوراة ولذلك لم يعودوا يهتمون بالطول والعرض الجغرافيين فلما رسموا خريطة مبنية على وصف ماركو بولو جعلوا اسيا تمتد الى النصف الغربي من الكرة الارضية حتى اعتقد كولمبس انه يبلغ الصين بالسفر اليها غرباً من اوربا. وكانت نتيجة هذا الخطإ انه اكتشف اميركا ثانية سنة ١٤٩٢ كما لا يخفى. قلنا « ثانية » لان اهالي اوربا اكتشفوها قبل ذلك في القرن التاسع او العاشر لكن اكتشافهم لها لم يأت بفائدة لانه لم يشتهر وانما المكتشف الحقيقي للشيء هو الذي يكشف للناس كيفية الانتفاع به

ولما كشف كولمبس اميركا ترجح ان الارض كروية او كمثرية ثم ثبتت كرويتها بدليل حسي لما طاف مجلان حولها سنة ١٥٢١

ورسمت اميركا اول مرة في خريطة اضيفت الى نسخة من كتاب بطليموس طبعت في رومية سنة ١٥٠٨. وتقدم الناس في رسم الخرائط بعد ذلك كلما زاد تحقيقهم لمواقع الاماكن على سطح الارض الى ان قام مركاتور وصنع اولا خريطته التي في شكل قلبين متماسين من رأسيهما وهي مرسومة في نسخة تخصه من كتاب بطليموس تاريخها سنة ١٥٧٨ ثم صنع خريطته الثانية التي ترسم خرائط الملاحة على نسقها حتى الآن

ولم تزل المعارف الجغرافية تتسع وتتحقق عاماً بعد عام والخرائط تصحح بحسبها حتى لم يبق من الكرة الارضية غير مكشوف الا قليل من اواسط اسيا وافريقية وجهات القطبة الجنوبية. وانقسم علم الجغرافيا الى فروع كثيرة وألفت فيه الكتب الضخمة وصنعت له الاطالس الكبيرة ولا يزال يزيد اتساعاً واتقاناً باهتمام الاوربيين والاميركيين اما العرب فخرجوا من ميدانه منذ مئات من الاعوام.

مقتطف اغسطس واكتوبر ١٨٩٨

اقدم المناجم والخرائط

في اوائل القرن العشرين اهتمت شركة انكليزية بالبحث عن المناجم التي كان المصريون الاقدمون يستخرجون الذهب منها ومضى وفد الى الاماكن التي كانت فيها بين الاقصر والقصير فاكتشف سبعة عشر منها ووجد الذهب في بعضها كثيراً يبلغ ستة عشر درهماً في الطن

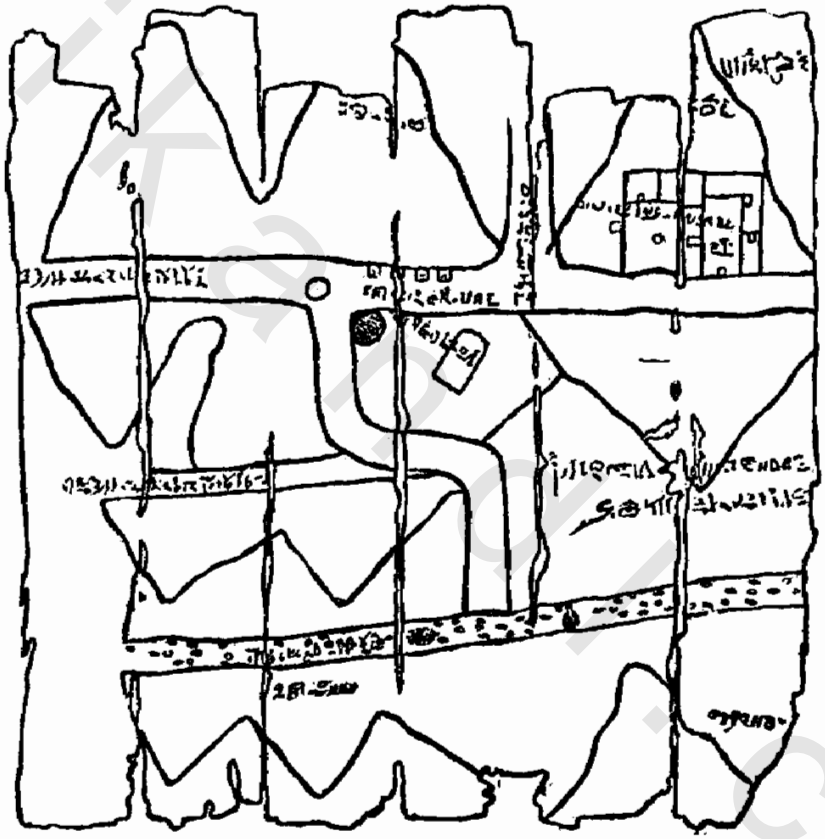

وقد اطلعنا الآن على اقدم خريطة من الخرائط المصرية التي بقيت الى الآن وهي اقدم خريطة وصلت الى ابناء هذا العصر مما صنعه الاقدمون وقد رسمت لتدل على مناجم الذهب في البلاد فرأينا ان نتحف القراء برسمها ووصفها فنقول :

تسلط على مصر منذ ثلاثة آلاف وثلثمئة سنة ملك اسمه ستي الاول وهو الذي بنى الرواق الاكبر في قصر الكرنك وكان فاتحاً عظيماً وقائداً كبيراً عبأ الجيوش ودوخ الاقطار ولم يكتف بالبناء والفتح بل وجه همته الى استخراج الذهب من معادنه . وقد وصلت الينا خريطة من البردي طولها نحو ٣٨ سنتمتراً في مثلها عرضاً

مشرمة الحواشي مشققة الصدر لكثرة الاستعمال ولما توالى عليها من القرون . وهذه الخريطة منقولة اصلا عن الخريطة التي رسمها لبسيوس الشهير وهي الآن في دار التحف البريطانية وفيها رسم واديين متوازيين ارتفعت الآكام على جانبي كل منهما ووصل بينهما شعب منحن . وأحد الواديين قاحل ملأته الحجارة والانجم الشائكة كما يظهر من صورته وهو الاسفل في الرسم والآخر كتب عليه انه يؤدي الى البحر وفيه اسم اربعة بيوت من بيوت المعدنين عند سفح اكمة وهناك كلمة « معدن الذهب » . وعند اتصال هذا الوادي بالشعب الممتد الى الوادي الآخر ارض زراعية فيها بئر او صهريج بجانبه كتابة يقال فيها « بئر الملك ستي الاول » وصفيحة مثل الصفائح التي تنصب فوق المدافن ويحتمل انه كتب فيها تاريخ حفره لتلك البئر والمعدن . والى اليمين من هذه الارض والبئر اكمة قليلة الارتفاع عليها كتابة مصرية يقال فيها « هنا الجبال التي يصول فيها الذهب ولونها احمر مثل لون هذه الكتابة » . والآكام بين الواديين ملونة في الخريطة باللون الاحمر . وعلى الجانب المقابل من هذا الوادي اكمة اخرى ارفع من الاولى في سفحها رسم هيكل كبير للآلهة امون وعلى الاكمة كتابة مصرية يقال فيها « الجبل الطاهر »

والخريطة على بساطة رسمها تدل دلالة واضحة ناطقة على ما وضعت له وهي دليل قاطع على اهتمام المصريين القدماء باستخراج المعادن وعلى انهم اهتدوا الى رسم الخرائط واتخاذها دليلا للاهتداء بها وهذا امر لا يفعله ابناء هذا القطر حتى الآن من تلقاء انفسهم . ولا غرابة في ذلك لان عمران المصريين في تلك الايام كان ارقى من عمرانهم في هذا العصر اذا استثنينا ما استفدناه حديثاً من اوربا . وكان ارقى كثيراً من عمران العرب الذين فتحوا هذا القطر وتغلبوا عليه . ولا ندري كم كان ربح الدول المصرية القديمة من استخراج الذهب حينئذٍ ولكن لا شبهة في انها كانت تجود بنفوس الاسرى ولا تقدر لعملهم قيمة بل كانت تكتفي باطعامهم ما يقوّمهم لكي يبقوا قادرين على العمل

اما الآن فلا مطمع باستخراج الذهب الا اذا كان منه ربح يزيد على نفقات استخراجه ويبقى منه ربحاً لرأس المال يبلغ عشرة او اكثر في المئة والاّ فمعدن الرمل الذي يقوم بنفقات استخراجه و يبقى منه ربح عشرة في المئة اربح من معدن الذهب.

مقتطف سبتمبر ١٩٠٠

جغرافيو الاسلام[1]

١

لقد عني العرب في صدر الاسلام بالعلوم ففازوا منها بالنصيب الاوفر واحرزوا لهم في صفحات التاريخ ذكراً يخلد نفقت لهم سوق العلم وزهت دولة الحكمة في عصرهم والشعوب الاوروبية تتعثر في عشواء الجهالة وتخبط فيها . حصلوا علوم الاوائل بل زادوا فيها ومهدوا اصول الادب و بينوا منهاج الطلب ما عنوا بشيء من العلوم الا بلغوه وما طمعوا بمطلب من الفنون الا ادركوه ولهم في افانين العلوم وضروبها كتب جاءت بحل عقد من مغازيها وجمعت من اشتات ضوابطها ومعانيها ما اثبت فضلهم وعظم قدرهم

ومن استطاع تاريخ الاسلام واستكشفه يعجب لما يراه من سرعة حركة الخواطر الادبية التي جاشت في الامة العربية اثر فتوح الممالك والبلدان وهي حركة عظيمة ما عتمت ان انبسطت في العالم الاسلامي اجمع وسرت منه منتشرة في سواه من الاقطار حيث أثرت بالافكار وجاءت بخير الثمار ، ونتائج الافكار لا تقف عند حد وتصرفات الانظار لا تنتهي الى غاية لان العلم المعنوي واسع كالبحر الزاخر. وكان ظهور الاسلام في القرن السابع وما استهل القرن الثامن إلا وملكهم عظيم متسع الارجاء وامرهم مستفحل في البلاد وكلمهم نافذة في الاقطار . فتحت بلاد الشام من سنة ٦٣٢ الى سنة ٦٣٨ وبلاد فارس بين الفرات والسند وخيحون من سنة ٦٣٢ الى سنة ٦٤٠ ومصر سنة ٦٣٨ والقيروان سنة ٦٤٧ وجزيرتا قبرص ورودس سنة ٦٤٩ ودانت بلاد ارمينية حتى جبال قوه قاف للخلفاء . وفي بداءة القرن الثامن فتح العرب بلاد ما وراء النهر سنة ٧١٠ و بلاد الاندلس من سنة ٧١١ الى سنة ٧١٤ فامتدت ولاية الخلفاء من حد الهند الى الاوقيانوس الاتلانتيكي ومن قنن جبال قوه قاف الى صحاري افريقية الداخلية

واختص العرب من فتوحهم بنصيب الرومان في معرفة البلاد والاصقاع فانهم ما وطئوا ارضاً إلا سبروها وما فتحوا بلاداً إلا استقصوها وكان من اثر اختلاطهم

(١) خطبة لسليم افندي شحاده تلاها في المجمع العلمي الشرقي ببيروت في جلسة مارس سنة ١٨٨٣

بالشعوب الاخرى تنبه الخاطر فيهم الى كسب علوم الاوائل فجدوا في هـذا السبيل وسهل لهم تناولها ذكاء قد فطروا عليه وعاطفة طبيعيـة ازدانت بقوة التبصرة ونفاذ الفكر . واخذ العرب بداءة بدء الآداب اليونانيـة عن السوريين وهم تلقنوها عن النساطرة الذين كانوا نفروا عن البـلاد الى فارس هرباً من اضطهاد قياصرة الروم لعلة دينية. وكان هؤلاء النساطرة على جانب من العلوم مهروا في الطب وشادوا مدرسة في ايذسا (مدينـة الرها) وهي من اجل المدارس خربها زينون الايزوري فجددوا نشأتها في جند يسابور من خوزستام وهرع اليها العدد الكثير من الطلاب ولما وقف العرب على تصانيف حكماء اليونان ولعوا بها واخذوا في استقراء اسبابها وفوائدها ونشأت اسباب تلك الحركة الادبية في خلافة ابي جعفر المنصور العباسي وهو أول من عني منهم بالعلم واقبل على طلبه في مواضعه فداخل ملوك الروم وسألهم وصلة ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بما حضرهم فاحضر لها مهرة المترجمين فترجموا له على غاية ما امكن وانتظم في دار الخلافة جماعة من ذوي الفهم اتقنوا كثيراً من الفلسفة والعلوم وكانوا يحدقون بالخليفة احداق الهالة بالقمر وتبغ جماعات اخرى من العلماء المحدثين في كثير من مدن الاسلام ذلك ما زاد عصر الخلافة فخاراً ورونقاً

واستيفاء الكلام في هذا الباب خارج عن حد مقالتي هذه اذ اختصها ببيان حال الجغرافية في صدر الاسلام وبذكر الاسباب التي آلت الى تقدم هـذا العلم على ان هذه الاسباب كثيرة لايسعنا تعدادها بل نقتصر على ايضاح بعضها وهو اخصها واهمها. فمنها سعة فتوح الأئمة من الخلفاء الراشـدين فحاجتهم الى معرفة البلاد وشعوبها كانت اضطرارية أمس من حاجة غيرهم اليها لانها فتحت صلحاً وعنوة وامانا وقوة ولـكل ذلك حكم في الشريعة في قسمة الفيء واخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وانالة التسويفات والاقطاعات فكانت معرفتهم البلاد التي دانت لدولتهم تشمل المعمورة بل القسم الاعظم منها . ومنها ايضاً اتساع نطاق تجارتهم وانتشارها في الاقطار شرقاً وغرباً جنوباً وشمالا وقد تعاظمت تجارتهم الى حد تجاوز حد فتوحهم على انه من البين المعلوم ان اقواماً عديدة من العرب تشاغلت منـذ القدم في التجارة وكانوا في ايام الفينيقيين حتى بعـد ذلك ايام البطالسة والرومان خير وساطة للتجارة بين البحر المتوسط وبلاد الهند .الا نعلم ان الفينيقيين انفسهم فرع من الشجرة العربية العظيمة وهم كانوا سادة البحر في ايام دولتهم ولا عجب ان رأينا تجار العرب في ذلك

العهد يقطعون الارض ذات الطول والعرض ويخوضون عباب البحر طلباً لاسباب التجارة فان اختلاطهم بالسواد الاعظم من شعوب القارة الآسية والقسم الشمالي من قارة افريقية كان الفاعل الاهم في رواج تلك الاسباب مع ما وجد فيهم من الميل الطبيعي للاتجار وقد حصلوا درجة مكينة لم يبلغها غيرهم من الشعوب القديمة حتى من جاء بعدهم قبيل اكتشاف البلاد الاميركية. وكان تجار العرب يتجرون في جميع انحاء المعمورة واطرافها وكانت قوافلهم منتشرة في الاقطار تخترق الجبال وتقطع القفار فتأتيهم بالاموال والخيرات العظيمة وبالسلع المتنوعة الاشكال المختلفة الاجناس. وقد ترتب من ذلك عدة طرق تجارية يمكن حصرها في اربع تبدأ من قادس وطنجة وتنتهي الى اقاصي البلاد الآسية اولاها تمر في الاندلس والاقطار الاوربية وبلاد الصقالبة حتى بحر الخزر وبلخ وبلاد تفزغز والثانية تخترق القسم الشمالي من افريقية ومصر والشام والكوفة وبغداد والبصرة والاهواز وفارس وكرمان والسند والهند واما الطريقان الاخيرتان فتعبران بحر الروم وتمر احداهما في سورية والخليج العجمي والاخرى في الاسكندرية والبحر الاحمر وتلتقي بتلك في بحر الهند. وبعبارة اخرى اقول ان تجارة العرب امتدت شرقاً الى الصين مارة في الجزائر الآسية وشمالاً الى اراضي القبائل الرحالة في اواسط آسيا والى بلاد الصقالبة (وهي الروسية) حتى شواطىء البلطيق وجنوباً الى ساحل افريقية الشرقي الى مدغشقر وغرباً الى اراضي السودان الشاسعة حتى شواطىء الاوقيانوس الاتلانتيكي

ومن الاسباب المنوه عنها فرض الحج على اهل السنة من الاسلام فكانوا يقصدون الكعبة الشريفة من اطراف البلاد على ما نراهم يفعلون حتى الآن ويجتمعون في ايام معلومة في بغداد والقاهرة ودمشق ويسيرون منها قاصدين الاقطار الحجازية. كل ذلك مع حب الرحلة في طلب العلم الذي فشا امره بين العرب في القرن التاسع والعاشر للميلاد ساعد على تقدم المعارف الجغرافية فوضع طبقة من اهل الادب كتباً جليلة في هذا الفن دونوا فيها ما عرفوا من البلاد وما سمعوه من اخبارها اخذاً ونقلاً عن الرحالة والتجار والحجاج واهل السير والآثار. ومن الكتب التي صنفها المتقدمون من الاسلام في اسماء الاماكن ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المشهورة ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار واقتصر على منازل العرب الواردة في اخبارهم والاشعار. واما من قصد ذكر العمران فجماعة سلكوا قريباً من طريقة المتقدمين من حكماء

اليونان في ذكر البلاد والممالك وعينوا مسافة الطرق والمسالك وهم ابن خرداذبه واحمد ابن واضح والجيهاني وابن الفقيه وابو زيد البلخي وابو اسحق الاصطخري وابن حوقل وابو عبد الله البشاري والحسن بن محمد المهلبي وابن ابي عون البغدادي وابو عبيد البكري والقزويني وياقوت الرومي الحموي وشمس الدين المقدسي وابو الحسن علي الهروي والشريف الادريسي وابو الفدا وابو العباس احمد السرخسي وعلي بن حسين المسعودي والمراكشي وعبد الرشيد الباكوري وابو القاسم الشيرازي والشيخ ازري الاسفرائيني والشيخ تقي الدين المقريزي . واما الذين قصدوا ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة اهل الادب وهم ابو سعيد الاصمعي وابو عبيد الشكوني والحسن بن احمد الهمذاني وابو الاشعث الكندي وابو سعيد السيرافي وابو محمد الاسود الغندجاني وابو زياد الكلابي ومحمد بن ادريس بن ابي حفصة وهشام بن محمد الكلبي وابو القاسم الزمخشري وابو الحسن العمراني وابو عبيد البكري الاندلسي وابو بكر محمد بن موسى الحازمي وابو الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري وبرهان الدين ابرهيم البقاعي وابو الفتح محمد الهمذاني وابن الجوراني وعلي بن محمد الخوارزمي ومحمد بن اياس الحنفي وابو المجد اسمعيل بن هبة الله الموصلي وابو الفضل البقالي الخوارزمي وابو عمر محمد الكندي وابو عبد الله محمد القضاعي والظاهري وابو الحسن احمد الاشعري . وعندنا ايضاً طبقة اخرى رحالة سطروا اخبار رحلتهم الى الآفاق واخص منهم بالذكر ابن بطوطة الرحالة المشهور . وبرع اهل الادب منهم في الجغرافية الوصفية الحاوية معرفة الممالك والبلدان والاصقاع والاقطار والمسالك والطرق وقد احاطوا علماً بالاقطار الاسلامية اكثر من غيرها من بلدان النصارى وغيرهم لما انهم كانوا يأبون الرحلة اليها وتفقه عادات اهلها واستقصاء احوالهم وامزجتهم وان ما رووه عنها جاء في مواضع كثيرة مشوهاً مغلوطاً ولا يؤاخذون بذلك لجهلهم لغات اولئك الامم والشعوب وعدم تيسر امتزاجهم بهم الناشيء عن اسباب جمة لا يسع ذكرها في هذه المقالة . وقد المع بذلك ابو الفداء في مقدمة كتابه تقويم البلدان حيث قال جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في الكتب المذكورة من غير ان ندعي الاحاطة بجميع البلاد او بغالبها فان جميع الكتب المؤلفة بهذا الفن لا تشتمل الا على القليل الى الغاية فان اقليم الصين مع عظمه وكثرة مدنه لم يقع الينا من اخباره الا الشاذ النادر وهو مع ذلك غير محقق وكذلك اقليم الهند

فان الذي وصل الينا من اخباره مضطرب وهو غير محقق وكذلك بلاد البلغار وبلاد الجركس وبلاد الروس وبلاد السرب وبلاد الاولق (الفلاخ) وبلاد الفرنج من الخليج القسطنطيني الى البحر المحيط الغربي فانها بلاد كثيرة وبلاد عظيمة متسعة الى الغاية ومع ذلك فان اسماء مدنها واحوالها مجهولة عندنا لم يذكر منها الا القليل النادر وكذلك بلاد السودان في جهة الجنوب فانها ايضاً بلاد كثيرة الاجناس مختلفة من الحبش والزنج والنوبة والتكرور والزيلع وغيرهم فانه لم يقع الينا من اخبار بلادهم الا النادر وغالب كتب المسالك والممالك انما حققوا بلاد الاسلام ومع ذلك فلم يحصوها عن آخرها . اه

وكلما متعنا النظر في التصانيف الجغرافية العربية نرى انهم احسنوا فيها السبك والوضع وجمعوا بين اشتات الفوائد والحقائق وان قصروا دون تنسيقها العلمي واستقراء اسبابها لان بين هذين الامرين مرحلة لم يتهيأ لكثير من الشعوب ان يتخطوها وكفاهم نبلاً ما شادوا لهذا الفن من المباني واوجدوه له من المحاسن حسبما اداهم اليه الاجتهاد وقد تبلج فجره على الآفاق في المئة الثامنة للميلاد اعني في المئة الاولى للهجرة النبوية واخذ في النماء بعد ذلك لما سطعت شمس المعارف الاسلامية نيرة في جبين عصرهم مطوقة جيده بعقد من لآليها الحسان فانالهم خطة رفيعة القدر بين الشعوب الشرقية

٢

واما المصنفات الجغرافية التي صنفت في خلال القرن الثامن المذكور فكانت عبارة عن رسالات وضعت لنفع القبائل البدوية تعريفاً للمنازل والمناهل والبوادي والقفار ومن ذلك كتاب النضر البصري كتبه في النصف الثاني من المئة الثامنة وهو نازل على خراسان والنضر هذا ولد سنة ٧٤٠ للميلاد وكتابه موجود في بعض المكاتب الاوروبية وقد اشتمل على وصف خواص الرجل والمرأة والمضارب والمنازل والجبال والمعابر والنوق والانعام والقمر والشمس والليل والنهار واللبن والخمرة والشجر والنبات والآبار والمياه والرياح والامطار. وقد احسن المصنف وضعه وضمنه ما تحتاج القبائل البدوية الى الاحاطة به ولدينا اسماء غيره من الكتب لا نخصها بالذكر في هذا المقام . على ان اول كتاب وضع في هذا الفن في وصف الممالك والبلدان مما اتصل بنا كتاب لابي اسحق الاصطخري وكان من علماء الاسلام ومشاهير الرحالة

والمتجولين الذين نبغوا في القرن التاسع والعاشر للميلاد فانهم كانوا ينزعون الى الرحلة والتجول طلباً لاسباب العلم والتقاطاً لدرره محاكاةً وتلقيناً نقلاً وروايةً وتعليماً فقد جمعوا في اسفارهم اشتات الاخبار ونوادر الآثار وتفحصوا خواص البلدان وامزجة الاقاليم . فطبقة منهم اقتصروا على تدوين اخبار رحلتهم واحاديث اسفارهم وطبقة اخرى دونوا مطالعاتهم في تصانيف تاريخية وجغرافية وادبية كما فعل الاولون من حكماء اليونان ومشاهير اهل الادب منهم لانه لم يكن لديهم من الوسائط ما لدينا الآن من وفرة الكتب والمصنفات في تنوعات العلوم وتفرعاتها مما جعلها دانية القطوف . وكانوا في اضطرار الى الارتحال طلباً للتحصيل وعليه فنرى ان فحول مؤرخي القدم كهيرودتس وبوليبيوس كانوا من اعاظم الرحالة كالمسعودي وابن حوقل في الاسلام. ونبغ ابو اسحق الاصطخري في النصف الاول من القرن العاشر وكانت ولادته في مدينة اصطخر من بلاد فارس رحل في طلب العلم وجاب بعض البلدان الاسلامية ودون اخبار رحلته. وجاء في كتابه بذكر الاقاليم والبلدان والجبال والانهار وبعض المسافات وان فاته وصف خواص البلدان وامزجها فانه حري بالتعظيم وبان يكون في مقدمة الكتبة في هذا الفن.وقد اشتهر كتابه بين كتب المسالك والممالك ونقل منه ابن حوقل الذي نبغ بعده ببضع سنين واستشهد به في كثير مما ذكره . وقد اخذ ابو اسحق الاصطخري عن كتاب في المسالك والممالك لابي زيد البلخي يعرف بتقويم البلدان صنفه نحو سنة ٨٨٠ للميلاد كما نقل المسعودي من الفزاري فان اكثر جغرافيي الاسلام حذوا هذا الحذو ودونوا ما رأوه رأي العين في اسفارهم وتجولهم وما حصلوه في تطوافهم ونقلوا من كتب وتواريخ من تقدمهم من اهل الادب والمحدثين . ومن افواه الرواة وتفاريق الكتب وذلك ما ذهب اليه ايضاً جغرافيو اليونان وكتابهم ونرى ان بطليموس انتحل في كتابه الجغرافي جغرافية مارينوس الصوري . ومن الكتب المصنفة في هذا الفن في المئة التاسعة كتاب المسالك والممالك لابي العباس احمد بن محمد الطيب السرخسي المتوفي سنة ٨٩٩ للميلاد ذكره حجي خليفة وذكر غيره لعلي بن حسين المسعودي ولعبد الله بن عبد الله المشهور بابن خرداذبه المؤرخ الجغرافي وهو اشبه بكتاب نزهة المشتاق للشريف الادريسي ولكنه اكثر منه ايجازاً وذكر فيه ان الطريق من موضع كذا الى موضع كذا مقدار من المسافة . وقال في مقدمة كتابه هذا رسم ايضاح مسالك الارض وممالكها وصفتها

وبعدها وقربها وعامرها على ما رسمه المتقدمون منها فوجدت بطليموس قد ابان الحدود واوضح الحجة في صفتها بلغة اعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة ليوقف عليها وكانت وفاته في حدود سنة ٩١١ للميلاد وقد ذكر الجيهاني كتابه وقال انه مختصر جداً لا يحصل منه فائدة كبيرة وقد ترجم هذا الكتاب الى الافرنسية وطبع في باريز سنة ١٨٦٥

﴿ المسعودي ﴾ اما المسعودي فكانت ولادته في بغداد حدود المئة التاسعة للميلاد وقد اقبل على طلب العلم والتجول منذ نشأته وجاب معظم قسم من الممالك الاسلامية وغيرها من البلدان المحيطة بها وكان مولعاً بالعلوم احرز الكثير منها في الحكمة والادب والتاريخ والجغرافية وفي سنة ٩١٥ كان نازلا على اصطخر فأقام بها مدة ثم رحل الى الهند وتفحص بعض اقطارها وكان قد جاءها مرة قبل اربع سنوات ثم عبر البحر الجنوبي وجاب سواحل افريقية الشرقية ومنها اجتاز البحر الى جزيرة العرب وليس لدينا من صحيح الرواية ما يحقق تواريخ اسفاره على انه يتحصل من مصنفاته انه انقطع عن الرحلة نحو سنة ٩٤٠ فلزم بيته متشاغلاً في تصانيفه الجليلة التي اثبتت له عظيم شهرة وكانت وفاته سنة ٣٤٦ للهجرة الموافقة ٩٥٧ للميلاد وقيل توفي في الفسطاط

وللمسعودي كتاب اخبار الزمان ومن ابادة الحدثان في التاريخ وهو تاريخ كبير قدم فيه القول بهيئة الارض ومدنها وجبالها وانهارها ومعادنها واخبار الابنية العظيمة وشأن البداء واصل النسل وانقسام الاقاليم وتباين الناس ثم اتبع باخبار الملوك الغابرة والامم الداثرة في القرون الخالية واخبار الانبياء ثم ذكر الحوادث سنة سنة الى وقت تأليف مروج الذهب سنة ٣٣٥ للهجرة (سنة ٩٤٦ للميلاد) ثم اتبعه بكتاب الاوسط فيه فجعله اجمال ما بسطه ثم رأى اختصار ما وسطه في كتاب سماه مروج الذهب ومعادن الجوهر ورتب اخبار الزمان على ثلاثين فناً وكتاب اخبار الزمان لم يتصل بنا وهو عزيز الوجود وقد قيل انه اكتشف على نسخة في مكتبة السلطان محمد الثاني الفاتح في الاستانة العلية ولم نقف على خبر ايضاً لكتابه الاوسط وهو يذيف مع اخبار الزمان على عشرين مجلداً . واما كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر فمن اجل المصنفات العربية قال في مقدمته انه اراد فيه اجمال ما بسطه في كتاب اخبار الزمان واختصار ما وسطه في كتاب الاوسط وقال نودعه ما في ذينك الكتابين

مما ضمناها وغير ذلك من انواع العلوم واخبار الامم وقد طبع مروج الذهب في مصر وطبع ايضاً في ثمانية مجلدات في باريس مترجماً الى الفرنساوية باشر المجمع الشرقي في طباعته سنة ١٨٦١ وانجزها سنة ١٨٧٣ وقد قال ابن خلدون في مقدمة كتاب العبر وديوان المبتداء والخبر ما يأتي عن كتاب مروج الذهب : شرح المسعودي فيه احوال الامم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلث مئة غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار اماماً للمؤرخين يرجعون اليه واصلاً يعولون في تحقيق الكثير من اخبارهم عليه اه . وقد يتضح من ذلك توسط هذا الكتاب النفيس بين التاريخ والجغرافية لما حواه من الفوائد في هذين الفنين وقد ذهب بعض كتبة الافرنج الى تشبيه المسعودي ببلينيوس فسموه بلينيوس المشرق ووجه التشبيه بينه وبين بوليبيوس اولى من ذاك

﴿ ابن حوقل ﴾ ونبغ ابن حوقل في النصف الثاني من المئة العاشرة وهو ابو محمد بن العلي الموصلي التاجر الرحالة ولد في بغداد ونشأ بها واقبل على التجول في البلاد الاسلامية في عهد المسعودي يوم انقطع هذا من الارتحال الى بيته واستمر في حل وارتحال ثماني وعشرين سنة وذلك من سنة ٩٤٢ الى سنة ٩٧٠ للميلاد ودون اخبار رحلته سنة ٩٧٦ في كتاب سماه المسالك والممالك اقتصر فيه على ذكر صفات الممالك الاسلامية ولم يتعرض لغيرها الا قليلاً متصلاً من ذلك بقوله في كتابه المذكور اما بلاد النصارى والحبشة فلم اتكلم عليها الا يسيراً لان تولعي بالحكمة والدين والعدل وانتظام الاحكام يأبى ان اثني عليهم بشيء من ذلك . وقد ذكر ابو الفداء كتاب ابن حوقل في مقدمة تقويم البلدان وقال ان كتاب ابن حوقل مطول ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً غير انه لم يضبط الاسماء وكذلك لم يذكر الاطوال ولا العروض وصار غالب ما ذكر مجهول الاسم والبقعة اه. وهذا الكتاب مختص بالجغرافية من سواها قد شمل وصف الاقطار والاصقاع والمدن والبلدان والانهار والمناهل والغدران والسباسب والقفار وألمع في ثروة البلاد وتجارة اهلها وفي جباية الضرائب والفرائض وذكر مسافة الطرق والمسالك وقد حرص علماء الافرنج على اجتناء فوائده للالمام باحوال الممالك في تلك الازمنة وقد طبع هذا الكتاب في ليدن سنة ١٨٧٣ كما

انه طبع كتاب ابي اسحق الاصطخري سنة ١٨٧٠ واقدم احدهم على ترجمتهما الى الالمانية

ومن المصنفات الجغرافية في القرن العاشر كتاب الممالك والمسالك لابي محمد حسين ابن احمد الهمذاني النحوي المتوفي سنة ٩٣٥ للميلاد ذكر فيه عجائب اليمن وجزيرة العرب واسماء بلادها وكتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للشيخ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن احمد المقدسي الحنفي المعروف بابن البناء وهو كتاب جليل مرتب على الاقاليم العرفية ذكر فيه احوال الربع المعمور وبلاده وبره وبحره وجبله ونهره وطرقه ومسالكه ومعادنه وخواصه وقال انه لا بد منه للمسافرين ولا غنى عنه للعلماء والرؤساء وذكر انه جمعه بعد ما جال ودخل الاقاليم وتفطن مساحتها بالفراسخ واستعان على ما لم يشاهده بالفحص عنه من الناس . وقد صنف كتابه في سنة ٩٨٥ عشر سنين بعد ابن حوقل . ولابي عمر محمد بن يوسف الكندي المتوفي سنة ٩٦١ كتاب في خطط مصر وهو اول من صنف فيه

وفي عهد المسعودي راسل احد امراء بلاد اثل (ڤولجا) الخليفة المقتدر بالله يعرفه باسلامه ويسأله انفاذ من يعلمه الصلوات والشرائع ولم اقف على السبب في ذلك فأنفذ اليه رسلاً في جملتهم احمد بن فضلان مولى محمد بن سليمان فعمل هذا رسالة ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل عن بغداد الى ان عاد اليها وقال فيها لما وصل كتاب المس بن شلكي بلطوار ملك الصقالبة الى امير المؤمنين المقتدر بالله يسأله فيها ان يبعث اليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الاسلام ويبني له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة في جميع بلده واقطار مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له اجيب الى ذلك وكان السفير له نذير الحدمي . قال فرحلنا من مدينة السلام لاحدى عشر ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٩ (سنة ٩٦١ للميلاد) ثم ذكر ما مر له في الطريق الى خوارزم ثم منها الى بلاد الصقالبة ما يطول شرحه ولم يتصل بنا من رسالة ابن فضلان الا شذر منها اثبتها بعض المصنفين في مصنفاتهم وفيما تبيناه قد حوت اخباراً وفوائد جمة عن بلاد الصقالبة واحوالهم وعاداتهم طابقت ما ذكره في البلدان الشمالية قسطنطين البرفيروجينيتي في كتاب له وضعه في سياسة المملكة وصنفه في نحو من ذلك العهد وكانت رحلة ابن فضلان الى بلاد الصقالبة متأخرة عن رحلة اهثر النروجي الذي رحل قبل بستين سنة وهو اول رحالة تجول

في روسيا الشمالية وتفحص شعوبها المنتشرة حتى سواحل البحر الابيض

٣

ونبغ ايضاً في الاسلام كثير من السياح الملاحين الذين خاضوا عباب البحر وجروا فيه الى اقاصي المعمورة واشهر هؤلاء السياح بل اولهم عهداً فيما ذكره المسعودي تاجر يسمى سليمان نبغ في النصف الثاني من المئة التاسعة للميلاد وكان مقيما ببلدة سيراف على ساحل بحر فارس وسيراف هذه كانت الفرضة العظيمة لفارس وكانت السفن تقصدها من جميع الاطراف حتى ومن الصين وملاسيا مشحونة بالسلع والاموال لاتساع نطاق التجارة يومئذ بين بلاد فارس والمشرق الاقصى . ورحل سليمان طلباً لاسباب التجارة واجتاز بحار الهند ماراً بين سيلان وملقا ودخل بحار الصين وقد دون اخبار رحلته ابو زيد البلخي في حدود سنة ٨٨٠ وزاد عليها ما نقله من غيره وحدثه به السياح الذين احتلوا سواحل الصين واخصهم ابن وهاب فانه جاب سواحلها وتفحص احوال اهاليها وقصد قاعدة المملكة فدخلها وهي فيما رواه على مسيرة شهرين من البحر وقابل سلطانها . وقد ترجم كتاب ابي زيد الى الفرنسوية وطبع في باريز سنة ١٧١٨ وهو مفيد لانه اول كتاب حوى وصف البلاد الصينية وقد ضبط ترجمته العالم رينود واعاد طباعته مع الاصل العربي سنة ١٨٤٥. ولابي زيد وهو احمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٩٥١ كتاب صور الاقاليم ايضاً ومسالك الممالك وكتاب البدء والتاريخ . ومما نعلمه ان تلك الاقطار لبعدها القاصي وتعذر مسالكها كانت موضوعاً للاخبار المستحيلة وخرافات القصاص عند العرب على شاكلة قصة سندباد البحري في كتاب الف ليلة وليلة وما ماثلها من الحكايات الغريبة والاحاديث الواهية التي كثيراً ما وقع لبعض مؤرخي العرب نقلها واثباتها بدون تمحيص واحكام نظر . وللعرب ايضاً قصص موضوعة على الاوقيانوس الاتلانتيكي الذي سموه ببحر الظلمات تبعاً لخرافات اليونان والرومان ومن ذلك خبر المغرورين الذين خرجوا من مدينة لشبونة (قاعدة البرتغال) وركبوا بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والى اين انتهاؤه فانشأوا مركباً حمالاً ثم دخلوا البحر وجروا به نحواً من احدعشر يوماً فوصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء فايقنوا بالتلف ولهم في ذلك اخبار نضرب عنها صفحاً وكان سفر المغرورين في حدود النصف الاول من القرن الثاني عشر للميلاد

ومما يحسن ذكره هنا انه ترتب على الصلات التجارية التي وجدت بين العرب والصين في ذلك العهد معرفة استخدام الحك وهي الابرة المغنطيسية وخاصتها ان يتجه طرفاها الى الشمال والى الجنوب وقد عرف الصينيون الحك من القدم ولكنهم لم يستخدموه في الملاحة الا في حدود المئة الرابعة للميلاد ويرجح الآن ان العرب نقلوا معرفة استخدام هذا الحك عن الصينيين في اسفارهم الى بلادهم وان الفضل للعرب في امحافهم العالم الاوروبي بهذه الآلة النافعة فاخذها الافرنج عنهم في عهد التجريدة الصليبية الثانية . وقد احسن بعضهم ايضاً رسم الخرائط للملاحة ووضعوا لها قواعد محققة اهتدى بها الملاحون في ذلك العهد ونرى ان فاسكو دي غاما السائح البرتغالي المشهور اكتشف خريطة للملاحة عند مغربي في الجزرات استصحبه رباناً في سفره الى ملندة وذلك سنة ١٤٩٧ والبيوكرك الكبير نائب الملك في الهند احرز خريطة رسمها له رجل عربي يسمى عمر وكان يستخدمها في اسفاره في بحر عمان وبحر فارس

﴿ البيروني ﴾ ونبغ في القرن الثاني عشر للميلاد بعض الرحالة واهل الادب الذين صنفوا كتباً في الجغرافية واخص بالذكر منهم البيروني وهو الشيخ العلامة ابو الريحان محمد بن احمد البيروني الخوارزمي المتوفي سنة ١٠٣٨ صاحب قانون المسعودي في الهيئة والنجوم وكتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية في النجوم والتاريخ وهو كتاب مفيد الفه لشمس المعالي قابوس وبين فيه التواريخ التي يستعملها الامم والاختلاف والاصول التي في مبادئها . واشتهر البيروني في الرياضيات وعلم الهيئة وهو اول من حقق صفة بلاد السند وبلاد الهند الشمالية وقد صحب السلطان محمود الغزنوي في غزواته من سنة ١٠٠٠ الى سنة ١٠١١ واصلح ما وجده من الخطإ في خريطة تلك البلاد وضبط مواقع مدنها وفعل ما فعله غيره من المتقدمين في تحقيق البلدان الاسلامية وترجم الى العربية بعض مصنفات البراهمة الهنود المدونة في اللغة السنسكريتية والحق يقال انه من المجتهدين الذين سعوا في تقدم العلم فاحرز منه الكثير وافاد وقد طبع نبذ من الآثار الباقية في باريز مترجمة الى الفرنسوية

***

وللشيخ ابي محمد الحسن بن احمد النسابة كتاب في اسماء الاماكن ألفه سنة ١٠٣٦ للميلاد ولابي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي المتوفي سنة ١٠٩٤ كتاب المسالك والممالك وكتاب المغرب في ذكر البلاد الافريقية والمغرب صنفه سنة ١٠٦٨

وهو عبارة عن وصف القسم الشمالي من افريقية اعني من وادي النيل الى الاوقيانوس الاتلانتيكي ومن البحر المتوسط الى السودان وكتابه هذا مختصر غيره واظنه مأخوذاً عن كتاب المسالك والممالك وقد طبع في الجزائر سنة ١٨٥٧ وطبع ايضاً مترجماً الى الفرنسوية في باريز سنة ١٨٥٩ وله ايضاً كتاب سماه معجم ما استعجم من اسماء البقاع ذكره ياقوت وقال لم اره بعد البحث عنه والتطلب له اه . وهذا المعجم موجود في بعض مكاتب اوروبا وهو اول معجم وضع في العربية واقتصر فيه مصنفه على ذكر المنازل العربية الواردة في اشعارهم واخبارهم . ولابي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المتوفي سنة ١٠٦٢ كتاب في خطط مصر سماه المختار في ذكر الخطط والآثار . وللشيخ ابي القاسم محمود الزمخشري المتوفي سنة ١١٤٣ كتاب الامكنة والمياه والجبال وهو معجم يحاكي معجم البكري وان كان اكثر ايجازاً منه الا انه اصح رواية منه في كثير من مواضعه وقد نقل عنه صاحب القاموس اسماء الاعلام الجغرافية وعول عليه في الكثير منها وهو كتاب لطيف وقف عليه ابو الحسن العمراني تلميذ الزمخشري فزاد عليه وقد ترجم الى اللاتينية وطبع في باريز سنة ١٨٥٦ ولابي الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري المتوفي سنة ١١٤٦ كتاب في اسماء البلدان وله ايضاً كتاب فيما اختلف وائتلف من اسماء البقاع اختصره الحافظ ابو موسى محمد ابن عمر الاصفهاني ذكره ياقوت وقال انه وجده تأليف رجل ضابط قد انفذ في تحصيله عمراً واحسن فيه عيناً واثراً وقد نقل منه في معجمه . ولعلي بن محمد الخوارزمي المتوفي سنة ١١٦٤ كتاب اشتقاق اسماء المواضع والبلدان ولابي الفضل محمد بن ابي القاسم البقالي الخوارزمي المتوفي سنة ١١٦٦ كتاب في منازل العرب

﴿ الادريسي ﴾ وللشريف محمد بن محمد الادريسي الصقلي كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق صنفه لروجر الافرنجي صاحب صقلية وهو من اصحابه ورتبه على الاقاليم السبعة واورد اوصاف البلاد والممالك مستوفياً وهي المسافات بالميل والفرسخ ولكنه لم يذكر الاطوال والعروض واختصره بعضهم . وهذا الشريف الادريسي من اشهر جغرافيي الاسلام الذين نبغوا في القرن الثاني عشر ولد في سبتة سنة ١٠٩٩ ورحل الى قرطبة في طلب العلم ثم رحل الى صقلية فاحسن روجر صاحبها وفادته وقربه منه فصنف له كتابه نزهة المشتاق وفرغ من تصنيفه سنة ١١٥٤ وعمل له ذات حلق وكرة مسطحة من الفضة زنتها ثماني مئة مارك رسم عليها جميع اقاليم واقطار

المعمورة المعروفة في عهده . وشأن الادريسي انه نقطة المماسة بين جغرافية الاسلام وجغرافية الافرنج وكتابه ترجم الى اللاتينية سنة ١٦٩٤ ترجمه اليها عالمان مارونيان هما جبرائيل الصهيوني الاهدني المتوفى ١٦٤٨ والخوري يوحنا الحصروني من جبل لبنان وهو اول كتاب في هذا الفن تداوله الافرنج وقد ترجم الى الفرنسوية سنة ١٨٣٦ وطبع في باريز وقد طبع القسم المتعلق في وصف المغرب وارض السودان ومصر والاندلس على حدة في ليدن سنة ١٨٦٤ مع ترجمته الى الفرنسوية وقد استعان الادريسي في تصنيف كتابه نزهة المشتاق بمصنفات من تقدمه من علماء هذا الفن وبما نقله عن غيرهم من اخبار التجار والملاحين وعرف الطرق والمسالك ما امكنه وجعل لكتابه ٦٩ رسماً نقلها عن كرته المنوه عنها . وله ايضاً كتاب روض الانس ونزهة النفس وهو اعم من كتاب نزهة المشتاق استعان به ابو الفداء وسماه كتاب الممالك وهـذا الكتاب لا وجود له الآن وقيل بل يوجد منه نسخة في مكتبة باريز الملكية

ومن الكتب الموضوعة في هذا الفن كتاب مزيل الارتياب عن مشتبه الانساب لابي المجد اسمعيل بن هبة الله الموصلي ذكره المؤيد في تقويم البلدان اعتنى فيه بضبط الانساب فقط ولم يذكر الطول والعرض وله ايضاً كتاب التفصيل . وكتاب المسالك والممالك لابي الحسن علي المراكشي ذكره ابن الوردي . وكتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس الدين محمد الانصاري الدمشقي. وكتاب عجائب الدنيا للشيخ ازري الاسفرائيني وكتاب عجائب البلدان لابن الجزار . وكتاب اللباب الى معرفة الانساب لابي الحسن احمد الاشعري. وكتاب اسماء البلدان لابي الفتح محمد بن جعفر الهمذاني. وكتاب عيون اخبار الدنيا لمحب الدين النجار البغدادي المتوفى سنة ١٢٤٥ وكتاب عجائب الاسفار وغرائب الاخبار لابي القاسم مسلم بن محمود الشيرازي . وكتاب المسالك والممالك المشهور بالعزيزي لحسن بن احمد المهلبي الفه للعزيز بالله الفاطمي صاحب مصر ونسبه اليه . وكتاب المسالك والممالك لابي عبد الله الجيهاني وزير امير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك اليها ليتوصل بذلك الى فتوح البلدان فجعل العالم سبعة اقاليم وجعل لكل اقليم كوكباً ولم يفصل الكورة ولا وصف المدن بل ذكر الطرق شرقاً وغرباً وشمالاً وبذلك طال كتابه ، كذا قال صاحب احسن التقاسيم وقال واما ابن الفقيه الهمذاني فانه لم يذكر

الا المدائن العظمى ولم يرتب الكور والاخبار وادخل في كتابه ما لا يليق به اه .
وكتاب زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك في فضائل مصر واعمالها للفاضل خليل بن شاهين الظاهري . وكتاب الاشارات الى اماكن الزيارات لابن الجوراني ابتدأ فيه بذكر مدينة دمشق وما فيها من قبور الصحابة الى آخره. وكتاب منازل الارض ذات الطول والعرض للشيخ على بن ابي بكر السائح الهروي المتوفي بحلب في سنة ١٢٠٣ وقيل في سنة ١٢١٤ ذكر انه كتب واستوعب فيه ما قدر عليه ووصل اليه في سياحته وله ايضاً كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات مختصراً ابتدأ فيه من مدينة حلب وكتب ما رآه براً وبحراً من المزارات والمشاهد وذكر انه لم ير كثيراً مما ذكره اصحاب التواريخ ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر ولا شك ان قبورهم اندرست . وذكر ان الانكتار (ريشارد) ملك الفرنج اخذ كتبه ورغب في وصوله اليه فلم يجب ،ومنها ما غرق بالبحر وانه زار اماكن ودخل بلاداً من سنين كثيرة فنسي اكثر ما رآه واعتذر عنه مع انه ذكر فيه من زيارات الشام و بلاد الفرنج والارض المقدسة وديار مصر والمغرب وجزائر البحر و بلاد الروم والجزيرة واطراف الهند والحرمين واليمن وبلاد العجم وهذا مقام لا يدركه احد من السياح والزهاد الا رجل كال الارض بقدمه واثبت ما ذكره بقلبه وقلمه

واكثر هذه الكتب عزيز نادر الوجود وبعضها قد اندثر ولا يعلم له من خبر ولدينا من اهل الادب الذين صنفوا في الجغرافية في القرن الثالث عشر الميلاد من قد اشتهر امرهم في الرحلة والتجول في الاقطار كابن سعيد المغربي الغرناطي القاعي الاندلسي ولد بغرناطة سنة ١٢١٣ وتوفي بتونس في حدود سنة ١٢٨٦ رحل الى القاهرة والى حلب وتجول الى دمشق ودخل ارجان وحج ثم عاد الى المغرب وقد صنف في رحلته مجموعاً سماه بالنفحة المسكية في الرحلة المكية وكان نزوله في ساحل افريقية سنة ٦٥٢ للهجرة ثم رحل ثانياً من تونس الى المشرق سنة ٦٦٦ للهجرة وله تآليف عديدة منها الموضوعان الغريبان المتعددا الاسفار وهما المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق وكتاب عدة المستنجز وعقلة المستوفز في رحلته الثانية .على ان تصانيف ابن سعيد مؤاخذة ببعض الخطإ الذي اصلحه ابو الحسن المراكشي في كتابه في وصف بلاد المغرب والاندلس فقد نقل ابن سعيد من كتب الاولين غير

منتقد واخذ عنه ابو الفداء في كتابه تقويم البلدان في ذكر العروض والاطوال فتعثر بزلاّته وسقط في خطائه

﴿ ياقوت ﴾ وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي اشهر من ان يذكر وهو الشيخ الامام شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي صاحب التصانيف المشهورة وكان يوناني المولد أسر في حداثته فبيع من تاجر حموي مقيم ببغداد ونشأ في خير مولاه وطالع العربية وحصّل العلوم واشتغل بداءة بدء في الاتجار وكان مولاه ينفذه الى الاقطار في طلب اسبابها ورحل غير مرة الى جزيرة كيش الواقعة في وسط بحر فارس وكانت هذه الجزيرة وقتئذٍ محط رحال التجارة بين المشرق والمغرب وفيها كانوا يتبادلون متاع الهند وملاسيا بحاصلات مصر وبلاد الشام والمغرب الاقصى . ولما عتقه مولاه تعاطى التجارة لنفسه ولاسيما الاتجار في الكتب والتآليف ذلك ما سهّل له الاحاطة بجميع العلوم وادخار اشتات الفوائد التي دونها في مصنفاته الجليلة وزاد عليها ما شاهده في اسفاره وحصله في تطوافه وقد قضى سنين في الرحلة والتجول في بلاد العرب ومصر والشام والجزيرة وخراسان حتى شواطىء نهر جيحون ورحل الى القسطنطينية فيما رواه بعضهم عنه . وفي حدود سنة ١٢٢٠ كان في خوارزم لما اغار جنكيز خان مع التتر على البلاد فعاد الى بلاد الشام وتوفي فيها سنة ١٢٢٩ .اما كتابه معجم البلدان فانه من اجلّ الكتب الموضوعة في الجغرافية وقد احرز السبق عليها لانه جاء اعم من غيره لترتيبه على حروف المعجم وقد احاط بجميع اقسام المعمورة وذكر اسماء البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والانهار والغدران والاصنام والابدار والاوثان وتعرّض للكلام على صفة الارض وما فيها من الجبال والبحار وحذا حذو اليونان القدماء في قسمة الارض الى سبعة اقاليم وافصح في اشتقاقها والاختلاف في كيفيتها وجاء في تفسير الالفاظ التي تكرر ذكرها في كتابه مثل البريد والفرسخ والرستاق والجند والطول والعرض والصلح والسلم والفيء والغنيمة وذكر امزجة البلدان واهوائها ومطالع نجومها وانواءها وعما اختصت من الخصائص وضبط تصحيح الاسماء واشتقاقها والمع بذكر من دفن فيها من الاعيان والصالحين والصحابة والتابعين واورد نبذاً مما قيل فيها من الاشعار ومن ينسب اليها من العلماء والمحدثين وقد حرص على تدوين اخبار بعض الرحالة الى بلاد الفرنج وغيرهم مما جاء بعظيم فائدة كما فعله في اثبات رحلة ابن فضلان

الى بلغار . . وقال ياقوت في مقدمته ما يأتي بعد ان ذكر كثيراً من الكتب وهذه الكتب المدونة في هذا الباب التي نقلت منها ثم نقلت من دواوين العرب والمحدثين ومن افواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهدته في اسفاري وحصلته في تطوافي اضعاف ذلك اه .وكان بمرو الشاهجان في سنة ٦١٥ (١٢١٨ للميلاد) لما وقع له بعض البواعث لجمع هذا الكتاب واسهب في ذكر ما لقيه من النصب والتعب في اتمامه ففرغ من تأليفه في سنة احدى وعشرين وست مئة (سنة ١٢٢٤ للميلاد) على انه اعاد النظر اليه وصححه غير مرة . وفي المكاتب الافرنجية عدة نسخ منه واحدة منها كان الشروع من تبييضها سنة ٦٢٥ وهذه النسخة طبعت في ليبسيك سنة ١٨٦٦ في ثماني مجلدات وزيد عليها فهرسة باسماء الاعلام الذين جاء ذكرهم في هذا الكتاب وله كتاب المشترك وضعاً والمفترق صقعاً انتخبه من كتابه معجم البلدان على الحروف وطبع في كوتنجن سنة ١٨٤٦ وقد اختصر ياقوت معجمه في كتاب سماه مراصد الاطلاع على مراصد الاطلاع ولم يتمه واختصره صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق وهذا المختصر موجود في المكاتب الاوربية وقد طبع في المانيا

﴿ القزويني ﴾ اما الشيخ زكريا بن محمد القزويني فقد نبغ في القرن الثالث عشر وكانت وفاته سنة ١٢٨٣ وله كتاب آثار البلاد واخبار العباد مجلد في الجغرافية على مقدمة وسبعة اقاليم وله ايضاً كتاب عجائب المخلوقات جمع به ما عرف وسمع من خصائص البلاد والعباد لكن فيه الغث والسمين وتاريخ تأليفه سنة ١٢٧٥ وهذان الكتابان طبعا في كوتنجن سنة ١٨٤٩ وقد سماه بعضهم بلينيوس المشرق لانه عني بالتاريخ الطبيعي ودوّن منه ما احاط به علماً وما نقله عن المتقدمين . ولزين الدين عمر بن المظفر بن الوردي المتوفى سنة ١٣٤٨ كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب مجلد نصف اوله في ذكر اقاليم وبلدان والباقي في بعض احوال المعدن والنبات والحيوان وهذا الكتاب موجود في المكاتب الاوروبية ولا يركن اليه لتعدد الزلات والشطط فيه . وللقاضي تاج الدين بن المتوج المتوفى سنة ١٣٢٩ كتاب اتعاظ المتأمل وايقاظ المتغفل في بلاد مصر

واشهر جغرافي المئة الرابعة عشرة ابو الفداء فان ابا القاسم محمد النويري المالكي اقتصر على تدوين اخبار المتقدمين في القسم الجغرافي ولم يأت بفائدة جديدة ثم نبغ بعده الذهبي وهو شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان المصري المتوفى سنة

١٣٤٧ وله المعجم الصغير . ولعبد الرشيد بن صالح بن نوري الباكوري الذي نبغ في حدود سنة ١٣٩٧ كتاب تلخيص الآثار في عجائب الاقطار. اما ابو الفداء فهو الملك المؤيد عماد الدين اسمعيل بن علي بن ايوب بن شاذي صاحب حماه ولد سنة ١٢٧١ للميلاد وصار من جملة امراء دمشق وبالغ في خدمة الملك الناصر محمد بن قلاوون الى ان وعده بسلطنة حماه وقام له بما وعده و بكل ما يحتاج اليه وكان فيه مكارم وفضيلة تامة مع فقه وطب وحكمة وغير ذلك . وكان اجدر ما يعرفه علم الهيئة لانه اتقنه وان كان قد شارك مشاركة جيدة وكانت وفاته سنة ١٣٣١ وكتابه تقويم البلدان طبع في باريز سنة ١٨٤٠ وقد ترجم الى اللاتينية وترجم قسم منه الى الفرنسوية . قال ابو الفداء في مقدمته قد جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في كتب عديدة على ما ستقف عليه عند ذكرها وحذونا في تأليفه حذو ابن جزلة في كتاب تقويم الابدان في الطب وسمينا كتابنا تقويم البلدان وقبل ذكر البلاد في الجداول نقدم ما يجب معرفته في ذكر الارض والاقاليم السبعة والبحار اه .وقد جرى في تأليفه على تقسيم الاقاليم فانه ذكر في جداوله الاسماء واسماء المنقول عنهم والطول والعرض والاقليم الحقيقي والاقليم العرفي وضبط الاسماء وبسط الاوصاف والاخبار العامة وهو مؤاخذ ببعض الاغلاط التي نقلها من كتب المتقدمين بدون انتقاد وتمحيص كما اخذ عن ابن سعيد في وصف بلاد المغرب بدون تحري ومع ذلك فان كتابه جدير بالمطالعة ويعد في طبقة المصنفات الجغرافية الجليلة التي خلفها لنا علماء العرب

﴿ ابن بطوطة ﴾ ومن اعظم متجولي الاسلام رحلة واكثرهم استيعاباً للاخبار ابو عبد الله محمد بن ابرهيم اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة صاحب تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار خرج من طنجة مسقط رأسه في ١٤ حزيران سنة ١٣٢٥ وتجول في المغرب وافريقية وطرابلس وبرقة ومصر وفلسطين وبلاد الشام ثم رحل الى حلب وجاء دمشق وذهب حاجاً ثم رحل الى نجد وعاد الى الشام وطاف العجم والعراق وبلاد ما بين النهرين وعرج نحو الجنوب فدخل بحر بربرة وجاء كيلوا على ساحل افريقية الشرقي وعاد الى هرمز مخترقاً القسم الجنوبي من جزيرة العرب وجاب جزائر بحر فارس المشهورة بمغاصات اللؤلؤ ثم ذهب حاجاً ثانياً ورحل من الحجاز الى الشام ومنها دخل الاناضول وتجول فيها ومنها ركب البحر قاصداً القرم وتسوح في بلاد القفجق (قبجاق) وهي روسيا الجنوبية وكانت في ولاية ايد من

سليلة جنكيز خان ومن قفجق رحل الى بلغار قاعدة بلاد البلغار القديمة التي ذكرها ابن فضلان في رحلته وآثارها قائمة الى الآن على ضفة نهر الاثل وبلغ ابن بطوطة آخر حد من المعمورة في الشمال عرفه العرب وما وراءه ارض الظلمة وبينها وبين بلغار مسيرة اربعين يوماً ورغب في دخول ارض الظلمة لكنه اضرب عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى . قال والسفر اليها لا يكون الا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة بها والكلاب لها الاظفار فتثبت اقدامها في الجليد ولا يدخلها الا الاقوياء من التجار اه . وقد المع ابن بطوطة في كيفية الاتجار في ارض الظلمة وهي عبارة عن معاوضة يجريها التجار مع شعوب تلك البلاد ويأخذون بدلاً من متاعهم السمور والسنجاب والقاقم ورحل الى القسطنطينية واقام بها مدة يشاهد عظمة هذه المدينة ثم عاد الى قفجق ورحل منها متجولاً في البلاد الواقعة في شمالي بحر الخزر ودخل خوارزم (خيوا) وبخارى وخراسان وقندهار ووادي السند الفاصل بين الهند وايران واقام بدلهي قاعدة السلطنة الاسلامية في الهند سنتين ونصب على القضاء فيها ثم رغب في الرحلة فذهب رسولاً من السلطان الى سلطان الصين متجولاً في البلاد الممتدة من كنبايه الى كاليكوت واضطر الى الاقامة بجزائر ملديف وولي فيها القضاء سنتين ثم نهض منها متتبعاً سيره الى الصين فدخل جزائر سيلان وسومطره وجاوه في سفره وشاهد عدة مدن من الصين واقام اياماً بخان يالق وهي بكين قاعدة المملكة ورحل عنها قاصداً المغرب وكان قد بارح بلاده منذ ٢٤ عاماً فوصل طنجه في حدود سنة ١٣٤٩ للميلاد وما لبث ان عاد الى الرحلة فدخل الاندلس وتطوف فيها مسرحاً نظره في مبانيها الفاخرة ومعاهدها الزاهرة لاسيما بلد غرناطة . وفي سنة ١٣٥٢ ذهب رسولاً من سلطان مراكش الى بلاد السودان وعبر البلاد الى ما وراء نهر تمبكتو ثم عاد الى فاس وفيها وافته المنية سنة ١٣٧٧ . ورحلته هذه طبعت في باريز سنة ١٨٥٣ ، وقد ترجمها بعضهم الى الفرنسوية وهي في اربع مجلدات ، وهي كثيرة الفائدة حوت من نوادر الاخبار ومشاهد البلدان والامصار ما تحلو مطالعته ، وان تخللها اشياء يتبرأ الانسان من صحتها فانه قد علق اكثر المواد بخطه وتقاعد عن تدوينها فضلاً عما اصابه من ضياع كتبه واوراقه في احدى رحلاته

وهاك بيان اسماء غيرها من الرحلات التي صنفها بعض العلماء الاعلام ، رحلة الشيخ

ابن حبيب ،ورحلة ابن جبير طبعت في المانيا، ورحلة ابن خلدون وهي عزيزة الوجود، ورحلة ابن رشيد، ورحلة ابن الصلاح ورحلة ابي القاسم النجيبي،ورحلة بدر الدين بن رضى الدين الغزي ، والرحلة الفيومية والمكية،والدمياطية للشيخ جلال الدين السيوطي ورحلة الكتاني ورحلة محمد بن رشد المالكي

***

﴿ المقريزي ﴾ وجلّ من نذكره فى هذه المقالة بعد من تقدم ذكرهم تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ١٤٤٣ وله كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار طبع في مصر . ولبرهان الدين ابرهيم البقاعي المتوفى سنة ١٤٨٠ كتاب يسمي اسفار عن اشردة الاخبار ألفه سنة ٨٤٤ للهجرة لما خرج الى غزوة قبرص ورودس من البحر ولم يتيسر له الفتح سوى فتح قلعة المينش . ولمحمد بن اياس الذي نبغ في حدود سنة ١٥١٦ كتاب نشق الازهار في عجائب الاقطار اخذه من تواريخ الامم وذكر فيه أغرب ما سمعه واعجب ما رآه من عجائب مصر واعمالها وابتدأ فيه بذكر طرف يسير من اخبار الفلك وعلم الهيئة . والحسن ولد فى غرناطة في آخر المئة الخامسة عشرة ورحل وتجول في بلاد المغرب الشمالية فأسره قرصان من النصارى سنة ١٥١٧ فأتوا به الى البابا لاون العاشر فتنصر وسمي يوحنا لاون الافريقي واقام بايطاليا وتفقه في اللاتينية والايطالية وعلم العربية وصنّف كتاباً فى وصف افريقية كتبه بالعربية ثم استخرجه الى الايطالية في سنة ١٥٢٦ وهو كتاب مفيد يعول عليه في معرفة تلك الاقطار وقد ترجم الى اللاتينية والفرنسوية .وخاتمة جغرافي الاسلام كاتب جبلي او حلبي خليفة صاحب كتاب جهان نما المتوفى سنة ١٦٥٧ الا ان هذا المصنف استعان بكتب الافرنج ونقل منهم ما كتبوه في اكتشافات السياح من البرتغال والاسبان

٤

و بعد استيفاء الكلام في مقالتي هذه عن حالة الجغرافية الوصفية في عهد العرب وذكر لمع من اخبارها ومن تراجم المصنفين في هذا الفن استأنف الكلام موجزاً في شأن الجغرافية الرياضية وما حصلوه منها وقد قدمت القول ان العرب اخذوا علوم الاوائل عن المؤلفات السريانية واليونانية وان الحركة الادبية بدأت في عهد

الخليفة ابي جعفر المنصور العباسي وتعاظم امرها في خلافة المأمون حفيده الذي بويع بالخلافة سنة ٨١٣ للميلاد وقد امر ان يترجم له المجسطي وكتاب بطليموس في الجغرافية وقد اثرت ترجمة هذه الكتب تأثيراً مهماً في تاريخ الجغرافية الاسلامية وعليها عول علماء العرب في الجغرافية الرياضية واتخذوا بطليموس اماماً لهم يرجعون اليه في هـذا الفن وقد ذاع صيت المأمون وطارت شهرته في الآفاق لازدهاء العلوم في خلافته التي عدها بعضهم بدء زمان المولدين وجعل البعض الآخر بدءه في خلافة المنصور وللمأمون في الرياضيات والهيئة آثار تثبت فضله في بطون الاوراق . امر بالوقوف للنجوم والارصاد في سنة ٩٢٠ ووضع الزيج الصحيح في اصلاح المجسطي وضبط اطوال بعض الاماكن من الكرة الارضية وخط رسم الارض . وفي حدود سنة ٨٢٨ امر الخليفة المأمون بقياس درجة من الهاجرة لاستقراء جرم الكرة الارضية وقام بهذا العمل اربعة من علماء الهيئة مدونة اسماؤهم في صفحات التاريخ وهاك ما قاله ابو الفداء في هذا الشأن . قد قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء كبطليموس صاحب المجسطي وغيره فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهمة على الارض ستة وستين ميلاً وثلثي ميل . ثم قام بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين في عهد المأمون وحضروا بأمره فى برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد ان اخذوا ارتفاع القطب محرراً في المكان الذي افترقوا منه واخذت احدى الفرقتين في المسير نحو القطب الشمالي والاخرى نحو القطب الجنوبي وساروا على اشد ما امكنهم من الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين فى الشمال وانحط للسائرين في الجنوب درجة واحدة ثم اجتمعوا عند المفترق وتقابلوا على ما وجدوه فكان مع احداهما ستة وخمسون ميلاً وثلثا ميل ومع الاخرى ستة وخمسون ميلاً بنيركسر فاخذ بالاقل وهو ستة وخمسون ميلاً اه . ولم يذكر ابو الفداء الا عملاً واحداً والحال انهما عملان جريا في آن واحد احدهما في برية سنجار من بلاد ما بين النهرين والآخر الى الشمال من بلد الشام بين تدمر والفرات وقد اثبتهما ابن يونس وهو من فحول علماء الهيئة الذين نبغوا في عصر الخلافة العباسية وكانت وفاته سنة ١٠٠٨ للميلاد قال سناد بن علي امرني المأمون ان احقق وخالد بن عبد الملك درجة من الدائرة العظيمة على سطح الارض فذهبنا لذلك وسار علي بن عيسى الاسطرلابي وعلي بن البحتري في طريق اخرى اما نحن فتوجهنا الى ان وصلنا بين قامية وتدمر فوجدنا الدرجة ٥٧ ميلاً ووجدها كذلك علي

ابن عيسى وعلي بن البحتري وبعثنا بالخبر فوصل في آن واحد. وذكر ابن يونس رواية احمد بن عبد الله الملقب بحبش في كتابه مطامع الارصاد وحاصلها ان العلماء ساروا في برية سنجار وتحققوا الدرجة فوجدوها ستة وخمسين ميلاً وربع ميل والميل اربعة آلاف ذراع هاشمية والذراع الهاشمية وضعها المأمون وهي $\frac{٥٤١}{١٠٠٠}$ من المتر فالميل العربي يعدل ٢١٦٤ متراً والدرجة تعدل ٥٧ ميلاً واذا اخذنا المعدل الاوسط بلغت الدرجة ١٢٢٥٠٠ متر مع صرف النظر عن الكسر وفي ذلك زيادة تبلغ ١١٥٠٠ متر عن قياس الدرجة الحقيقي في هاتيك الانحاء اعني عند الدائرة المتوازية الخامسة والثلاثين حسبما تبين من تحقيقات العلماء المتأخرين حيث بلغت حصة الدرجة ١١٠٩٢٠ والفرق جسيم يحاكي كثيراً من المغالط التي وجدت في بعض الازياج وسببها نقص في القواعد المتخذة وفي آلات الرصد المستخدمة . وما صححه العرب في ازياج بطليموس شمل البلدان الواقعة حوالي بغداد اختصاصاً اعني بها جزيرة العرب والبحر العجمي وبلاد دجلة والفرات وبلاد العجم وشواطيء بحر الخزر الجنوبية . وفي بداءة المئة الحادية عشرة صحح البيروني الازياج الموضوعة في اطوال بلاد الروم وما وراء النهر والسند فسد ما وجد من النقص في رسم الارض عن القسم الشرقي وحذا حذوه ابو الحسن علي المراكشي المتوفي سنة ١٢٣٠ في تحقيق اطوال وعروض البلدان الواقعة في القسم الغربي . وابو الحسن هذا ولد في مراكش ويعد في طبقة الرحالة المتجولين وقد صحح الخطاء الذي وجده في ازياج بطليموس في سعة بحر الروم في طرفه الجنوبي وصنّف كتاباً مفيداً في التاريخ والهيئة والرياضيات دوّن فيه اسماء بلاد الاسلام التي عينت اطوالها وعروضها وهي مئة وخمسة وثلاثون بلداً حقق طول وعرض اربع واربعين منها ممتدة من الاوقيانوس المحيط الى مصب النيل وفي آخر المئة الثالثة عشرة نبغ ناصر الدين الفلكي وفي منتصف المئة الخامسة عشرة نبغ فلكي آخر هو ألوغ بك ابن شاه رخ صاحب بلاد الصفد قد اتقن علم الهيئة ووضع ازياجاً حسنة وفي سنة ١٤٣٧ رسم خريطة الكرة الارضية واستند في علمه على مصنفات ناصر الدين الطوسي الذي كان يقف للنجوم في مرصد شاده له هولاكو خان على مقربة من مراغة . وقد روى بعضهم ان ألوغ امر علي كوشجي ان يسير الى الصين فسار اليها وقاس درجة من الهاجرة وحقق جرم الكرة . واذا اعملنا النظر في مصنفات العرب في الجغرافية الرياضية وتفحصنا ازياجهم نرى بينهم وبين العلماء المتأخرين من

الافرنج تفاوتاً عظيماً لان هؤلاء بلغوا من التحقيق والضبط والاكتشاف مبلغاً لم يبلغه العرب الذين قد فاقوا بطليموس ويرجحون عليه في كل حال لتعديلهم ازياجه واثبات بعض الاصلاح فيها وعلى ذلك فنرى ان الطول الغربي من طنجة بالنسبة الى الاسكندرية لا يزيد على ٩ ٣° والزيادة حسب بطليموس ١٨° وخط بحر الروم المستقيم من طنجة الى طرابلس الشام ٣٠ ٤٢° في الزيج العربي وزيادته فيه على طوله الحقيقي ٥٢ حالة كونها بلغت في زيج بطليموس ١٩° وقد يتضح من ذلك ان العرب عرفوا قطر بحر الروم الحقيقي قبل ان يعرفه الافرنج بخمس مئة سنة

وفي هذا القدر كفاية ليعلم فضل العرب في تقدم العلم الجغرافي. وزبدة المقال انهم زادوا على اليونان والرومان تعريفاً في اقسام المعمورة خصوصاً في طرفيها الشمالي الغربي والشرقي وفي القسم الشمالي بلغت معرفتهم حد معرفة الاوائل وقد صححوا شيئاً من المغالط وحققوا بعض المواقع في اواسط القارة الآسية . وفي الاطراف الجنوبية اقتصر ملاحوهم على التجول في شواطىء افريقية الشمالية ولم يتوغلوا في البلاد اكثر مما عرفه بطليموس فذكره في زيجه وقد فاقوا سواهم في تعريف صفة البلاد الواقعة في اقاصي المشرق وفي اواسط افريقية من المغرب .عرفوا الصين ووطئوا ارضها ولم يطأها الرومان وتوغلوا في افريقية ودخلوا الصحراء الى بلاد السودان ولم يجتز الرومان حد الصحراء الشمالي

وقد اجاد العرب في تقويم الطرق والمسالك وبيّنوا المسافات على احسن اسلوب وقد احرزوا السبق في تصنيف القواميس الجغرافية ولم يتقدم الرومان الى مثل ذلك بل واليونان ايضاً فان هؤلاء نزعوا الى مثل ذلك في القرن السادس للميلاد فصنف احدهم قاموساً للاعلام الجغرافية اختصره اسطفان البيزنطي وهذا المختصر وحده موجود. اما اول قاموس جغرافي وجد عند الاوربيين فقد صنف في منتصف المئة السادسة عشرة صنفه اورتليوس البلجي وطبعه في انورس سنة ١٥٧٨ وفي سنة ١٦٢٧ صنف فيليب الفراري الايطالي قاموساً آخر ثم تتبعه غيره

وبالجملة فان ما فعله العرب في العلم الجغرافي يورثهم فخاراً ولا سيما وجودهم كصلة بين علوم الاوائل وعلوم المتأخرين فانهم رغبوا في علوم اليونان وادابهم ومرنوا فيها ايام كانت اوربا في غفلة عنها وياحبذا لو حرصوا عليها لتزيد في فخارهم فخاراً .

مقتطف مايو ويونيو ويوليو سنة ١٨٨٣